

750
بر بدار کاتلند



سحر الضحراء

دار الامیة

بَرَبْرَا كَارْتَلانْد

www.revity.com/vb

سِحْرُ الصَّحْرَاءِ

ترجمة
فستان شريد

مجموعه بَرَبْرَا كَارْتَلانْد القَصَصِيَّة العَرَبِيَّة

بإشراف

جسورج أنبي صالح

دار البنية



قَفَّت عربة الخيل المكشوفة التي يجرُّها جوادان أمام باب الفيلا؛ وترجُل منها أحد النبلاء. وفيما كان يدفع أجرة الحوذي الذي قاده من محطة كَانْ، تناهى إلى مسامعه صوتٌ موسيقى ينبعث من المنزل وشاهد فوانيس من ورق ملوَّن شفاف تزِين الحديقة.

أسرع الخادم ليحمل الحقيبة الجلدية الوحيدة التي ينقلها المسافر ويضعها في الداخل.

ورفع الحوذي يده إلى قُبَعته شاكراً على البخشيش السخي. ابتعدت العربة وتوقَّف السيد لحظةً عند أسفل الدرج، بينما المتوسط يتلألأ تحت ضوء القمر خلف أشجار السرو الكبيرة الداكنة.

كان المشهد غايةً في الجمال ورجَّع الموسيقى يُضاعف بالطبع من رومنسية الأجواء. ثم، التفت وصعد الدرج. كان كبير الخدم ينتظره في البهو.

- عَمَت مساءً، سيِّد تايرون، قال مرحِّباً وعلى وجهه ابتسامة

الخادم الذي يشغل وظيفته منذ مدةً طويلة. كُنَّا في انتظارك البارحة مساءً.

- نعم، أعرِفُ ذلك، رونالدسون، قال القادم الجديد. إن القطارات الوافدة من الشُّرق تتأخَّر دوماً وقد فَوَّت القطار الذي كان عليَّ الإنتقال إليه في باريس.

- سوف يكون سرور السيِّدة عظيماً عندما تعلم بوصولك خقاً.

- لا تُعَلِّمها بشيء قبل أن اغتسلَ وأبدلَ ثيابي، قال تايرون ستروم. أرى أن ثمة استقبلاً هذا المساء.

- نعم، سيِّد تايرون. هناك عشاء راقص للشباب.

وشابت صوتَ رئيس الخدم مسحةً خفيفةً من الإستخفاف ممَّا أضحك تايرون ستروم. كان يعرف أن رونالدسون، الذي أمضى سنوات عدَّة في خدمة أخته، يستهجن ما يعتبره «لقاءات من دون رسميَّات».

- بلُّني على المكان الذي سوف أنامُ فيه، قال مقترحاً. إن متاعني ضئيل وأشكُّك في أنني سأكون أنيقاً بما يكفي لهذه السهرة.

- سيِّدي، لما علمتُ بأنك ستمكث، على الأرجح، عند السيِّدة شقيقتك، أجاب رونالدسون، أحضرتُ من لندن أحد ملابس السهرة خاصتك.

إبتسم تايرون ستروم:

بارتياح. سوف ابعث إليك بخادم لِيُوضِبَ لك حقيبتك. إنهُ فرنسي لكنَّهُ يُتَقِنَ عمله.

- شكراً، رونالدسون. لقد حملتُ القليل معي لكن يخي يرسو الآن في المرفأُ حسبما أظنُّ؛ وعلى متنه أغراض لي سوف أرسلُ غداً من يَحضرها.

- اعتقدُ سيدي، أنك سوف تجدُ هنا كلَّ ما ترغب فيه لهذه الليلة. - أنا متأكدٌ من هذا الأمر.

وفيما هو يتكلم، صعد تايرون ستروم الدُرج الضيقُ الذي يقودُ إلى صالونِ الغرفة.

وما إن دخلَ الغرفةَ الجميلةَ التي كان يسود فيها اللُون الأبيض حتى رأى على إحدى الكراسي بذلته وقميصه مُنشأةً. فنظر إليهما مستاءً إذ فكَرَ في الإنزعاج الذي سوف يُعاني منه بعدما أمضى الأشهر الثلاثة الأخيرة وهو لا يلبس سوى ثياب عمليّة مريحة.

بالواقع، إن مهمّةَ سرّيّة، وخطرة أحياناً، أوكلت إليه في الشرق. وهو سافر متخفياً بحيث لم يكن جواز سفره يدل على اسمه الحقيقي.

كان قد أرسل تقريره الى باريس الليلية الفاتحة، إذ أمضى القسط الأكبر من السهرة في إعداده، منذ وصوله. وكان يعرف أن عدداً من الأشخاص في لندن سوف يُسرُّ جداً من العمل الذي أنجزه.

- رونالدسون، أنا ممتنٌ لاهتمامك بي دائماً بهذه الطريفة. لكم أتمنى اصطحابك معي في رحلاتي!

- فلتَحْنِي السُماء من ذلك، سيّد تايرون! هتف رئيس الخدم. لطالما أحببتُ أن أحيأ حياتك يوم كنتُ شاباً؛ بيد أنني اليوم تخطيتُ عمر المغامرات.

ضحك تايرون ستروم بهدوء وتبعَ رونالدسون الذي عبر ممشى الطبقة السُفلى بخطوات وثيدة فيها بعض العظمة، ماراً أمام عدّة صالونات.

عرفَ أنه سوف يحتلُّ الغرفة التي درج على سكنها في كلِّ مرّة يستفيد فيها من ضيافة شقيقته، لا لأنه كان يعتمد على معاملةٍ مميّزة؛ فالواقع أنه كان على الدوام غير دقيق في مواعيد وصوله أو مغادرته. ثم أن رونالدسون كان يعتبر أن عدم استقبال الزائر حسب الأصول هو بمثابة إهانة شخصية له.

ووصلاً أخيراً إلى غرفة تقع خارج الفيلاً لكنها متصلة بها عن طريق ممرٍ طويلٍ مسقوف.

كان المالك السابق كاتياً، يُنشد العزلة، لذلك شيّد لنفسه ما يشبه الشاليه الصغير. ولما كان البناء يقع على حافة هاوية، فقد كان يكشف في الصُباح منظراً رائعاً على البحر والشاطئ.

كانت فيلاً ليدي ميريل تقع على قِمة تلةٍ وتحتلّ موقعاً لا يضاهيه موقع. إلا أن هذا الشاليه الصغير، الذي اعتبره تايرون ستروم دائماً كمُلك له، كان أكثر جمالاً.

- كلُّ شيء أُعدُّ من أجلك، سيّد تايرون، قال رئيس الخدم

وأشار بإصبعه الى المكان الذي وضع فيه الخادم الآخر الحقيقية، بالقرب من خزانة الملابس، ثم القى بمعطفه على الكرسي، وولج الى الحمام. من مباحج فيلاً شقيقته تلك الحمامات الحديثة التي كانت نادرة الطراز في أوروبا.

إنّ الأميركيين، فكّر تايرون ستروم، يُشبهون الرومان الأقدمين قليلاً: لأنهم كانوا يُحبون الإستحمام غالباً، فقد حرصوا على أن تكون منازلهم التي عاشوا فيها مزودة بعدة حمامات فاخرة.

أما في أوروبا، وخصوصاً في انكلترا، فكان على المرء أن يختار عادةً بين مغطس - مقعد مركّز في الغرفة، تملأه أباريق نحاسية ينقلها الخدم والعرق يتصبّب منهم على امتداد الأدراج التي لا تُحصى - أو بين غرفة حمام تقع في طرف رواقٍ باردٍ طويل حيث ينبغي انتظار ساعات قبل أن يُنزل الصنبور ماءً تكاد تكون فاترةً.

كان تايرون ستروم، المتصدّد في المغطس العميق المريح والسّاخن الذي وُضع بتصرّفه في جنوب فرنسا، يشعر بأنّه لا يغتسل فقط من غبار الرّحلة، بل أيضاً من حالات القلق التي جعلت من مهمته الأخيرة تجربةً رهيبةً.

وفكّر في أنها كانت من أصعب المهام التي قام بها، وأنّ انجازها بنجاح يوليه الحقّ في عطلة طويلة يستريح خلالها من كل عمل. وكان يرغب في تمضيبتها عند شقيقته، التي كانت

كان تايرون ستروم دائماً رجلاً غامضاً في نظر زملائه، وأصدقائه وحتى شقيقته التي يعبدها. عمل في وزارة الخارجية طيلة سنوات. ثم، فجأة، ودون إعطاء أيّ سبب، راح يُسافر في أصقاع الدنيا الأربعة، لا يترك خلفه أيّ عنوان، وحين يعود يتحفّظ حول ذكر الأماكن التي زارها.

كان الكثيرون لا يرون فيه سوى رجالة اعتاد السُفر. فقط في مكتب سرّي في وزارة الخارجية، كان اسم تايرون ستروم يُلفظ بخشية واحترام. وكان بإمكانه الآن أن يسمح لنفسه بالتخلّي عن الضغط الذي لازم عمله طيلة تلك الأشهر الأخيرة؛ فقد شعر فجأة بالإعياء.

وكان يعلم أن ردّة الفعل هذه طبيعية: بعد أن كان من واجبه أن يحتاط باستمرار ويأخذ جانب الحذر، فلا يدخل غرفةً إلاّ ويفكّر في أنّ أحدهم يختبئ خلف بابها، ولا يتمكّن من الكلام إلاّ إذا اختار كلّ كلمة يتفوّه بها بعناية تامة. كلّ شيء انتهى الآن، قال في سرّه. فقد كان قراره حاسماً بأن يُرفقه عن نفسه برفقة شقيقته هيلين وبالأّ يقوم بأيّ مشروع مستقبلي، إلاّ إذا كان مجبراً على القيام به.

كان قد بدأ بخلع ثيابه عندما طُرق الباب. كان ذلك هو الخادم الذي أرسله رونالدسون.

- جنّت أوضّب لك حقائبك، سيّدي، قال بالفرنسيّة.
- شكراً، قال تايرون. ليس عندي سوى هذه الحقيقية.

كان يعلم أن بإمكانه الوثوق بشقيقته، فهي لن تحاول معاملته معاملة المشاهير، على عكس الكثيرين الذين حاولوا ذلك. والسبب بسيط: تايرون ستروم لم يكن فقط شاباً مثيراً للإهتمام، غنياً، ومتحدراً من عائلة عريقة، بل كان أيضاً جميل الحيا، يشع منه سحر وغموض لا تقوى النساء على مقاومته. وكن بالتأكيد، لا يرتبَن في نشاطاته التي غالباً ما يتورط فيها.

ثم أن ما من رجل كان بمقدوره تحقيق ما حققه تايرون ستروم في السنوات العديدة الماضية دون أن تتطور شخصيته بحيث تجذب إليه الإهتمام والفضول أينما حل.

وفيما كان يُنشف جسمه بعد الحمام، كان ليُخيلُ لمراقب محايِد أن هذا الجسم المشيق والرياضي يُشبه جسم إله إغريقي.

كان في أوج لياقته، ولما عاد إلى غرفته، لم يكن بوسع الخادم الفرنسي الذي كان في انتظاره لمساعدته في ارتداء ثياب السهرة غير أن يرمقه بنظرة إعجاب.

تحدث تايرون ستروم إلى الرجل بفرنسية طليقة. وعندما لم يبقَ عليه سوى وضع بذائه، صرّف الخادم. - لن تكون بحاجة إلى انتظارني.

- سوف أقوم بترتيب الغرفة فيما بعد، سيدي.

- شكراً.

انتظر تايرون ستروم خروج الخادم؛ أطفأ الأضواء وعبر الغرفة ليصل إلى الشرفة مروراً بالباب - النافذة المفتوح.

الوحيدة على قيد الحياة من أفراد عائلته المقربين، والتي كان يَكُن لها محبة تُقابلة إياها بالمثل.

كانت الليدي ميريل أكبر من شقيقها بأربع عشرة سنة. وقد دُلّته بعد وفاة والدتهما؛ يوم كان تايرون صبياً صغيراً.

كانت قد ترمّلت منذ ثلاث سنوات، وليس لها سوى ولد وحيد تعبه، اسمه دافيد، هو لورد ميريل الجديد.

كان دافيد في أوكسفورد آخر مرة زار فيها تايرون ستروم أخته. ولم يكن الخال وابن أخته قد تقابلا منذ سنتين تقريباً.

وكان تايرون ستروم سعيداً بأن يتعرّف بالشباب من جديد، إلا أنه أدرك أيضاً أن لدافيد اليوم إحدى وعشرين سنة من العمر؛ لن تكون الفيلأ بمثل الهدوء الذي كانت عليه في الماضي.

ما من شك في أن حفلات عشاء راقصة - كتلك التي يستهجنها رونالدسون - سوف تُقام ليلة بعد ليلة؛ وفي هذه الحالة، سوف ينعم بالقراءة في الشاليه إلا إذا مضى لينام في يخته.

لم يكن يرغب في أن يكون عضواً في الزمرة المتألقة والمرحة التي جعلت من الريفييرا إحدى المناطق الأوروبية الأكثر مطابفةً لذوق العصر.

وإذا كانت مونتي كارلو، مذ فتحت أبوابها للاعبين القمار، قد اجتذبت دائماً المشاهير والنصّابين، فإن الملك هو الذي جعل مدينة كان تماشي العصر يوم كان لا يزال أمير الغال. وفي الوقت الراهن، كان النبلاء، ورجال السياسة والأعيان يفتشون عن دور لهم في ضواحي المدينة.

«أريد أن أتّك وشأني»، قال تايرون في سرّه.

كان يرغب في رؤية الجمال الممتدّ تحته ومشاهدة السماء
المكوكبة.

لقد كان من شأن روعة المشهد أن تُدخل السُّكينة إلى
نفسه، كما لو كانت يداً منعشة تمرّ على جبينه. كان عطر
السَّرَنْجَة (*) والميموزا يعبق الأجواء. وكانت الجهنّميات (*)
الأرجوانية والغرنوقيّات (*) الزهرية والعطرية التي تعرّض على
طول الشرفة تعجّ صباحاً بطنين النحل.

كان كلُّ شيء هنا مألوفاً وهادئاً. إنكأ على الدرايزين وأحسّ
بنسمة ناعمة تهبّ من البحر. فتساءل إن لم يكن أحرى به
البقاء هنا حالماً بدلاً من أن يوافي بقيّة المدعوّين.

فهو لن يكون مرتاحاً بين أولئك الشباب الضاحكين المفرطي
الحيويّة، وتلك الجوقة الموسيقية، وسدّادات قناني الشمبانيا
المتطايرة في الهواء. ثمّ قال في نفسه إنّ التغيير هو ما ينشده في
نهاية الأمر.

كان قد ركّز تفكيره كثيراً على قضاياها والصعوبات التي
اعترضت مهمته بحيث يلزمه بعض الوقت قبل أن يصير دماغه
أقلّ انشغالاً وقيل أن تسترخي حواسه.

نظر نظرة أخيرة في ضوء القمر حيث تلتقي فضة البحر
المتلألئ بالآفق الضبابي، وتناهت إليه أصوات صادرة من
تحته

- إسمعيني، نيفادا، أرجوك! من الواجب أن تسمعيني!

(*) جنس نباتات برية وتزيينية (م)

كان الصوتُ صوتَ رجل فيه نبرةٌ من التوسُّل والإستغاثَة.
وقد شعر تايرون ستروم بذلك كإشارة خطر.

- فيما يتعلّق بي، فأنا لا أعرف تعبيراً مثل «من الواجب
أن»، أجابت المرأة.

- نيفادا، إنك تتحاشيني، وهذا الموقف يثير جنوني! لماذا
تبدلت! لماذا تُعامليني بهذه الطريقة؟
- كيف ذلك؟

كان الصوت فاتراً بعض الشيء، وانتبه تايرون ستروم الى
أن فيه لكنةٌ خفيفة.

- تعرفين تماماً ما أقصده. كنتِ غايةً في اللطف والوداد.
وها أنتِ، بعدما حملتيني إلى السماء السابعة تُلقين بي إلى
اعماق الجحيم.

- آواه، دافيد، كم هذا شاعري!

- تبتاً! الا تُريدين أخذي على محمل الجد؟ أنا أحبُّك، يا
نيفادا، وأنتِ تعملين على إفقادي صوابي.

وضحكت المرأة ضحكةً خفيفة.

- كم أنتُ مسرحي! لماذا يُردّد الرجال الشيء نفسه دائماً؟
أجد مفرداتك محدودة تماماً.

- أنتِ تسخرين مني؛ تُريدين الإمعان في إتعاسي. كيف
يُمكن أن تكوني بمثل هذا الظلم... والقساوة.

وضحكت المرأة من جديد.

- نواح... لا شيء غير النواح! أنا لا أفهم لماذا الرجال
ليسواراضين أبداً.

- الحق يُقال إنك سوف تجعلني تعيسة، أجابت نيقادا بصراحة، يا دافيد، أنا لا أرغب في التكلُّف بزواج ليس سوى صبيّ هستيرى.

- أنا رجل، وبما أنك تتكلَّمين على هذا المنوال، فسوف أثبت لك ذلك!

وقام بخطوة نحوها.
- امنعك من لمسي! - كان الصوت مزمجرأ إلى حدّ ما - أنا لا أسمح لأحدٍ بلمسي. أنا احتقرُك لأنّ الحب الذي تقدّمه لي لا يساوي شيئاً.

- ماذا تقصدين بذلك، سأل دافيد.
- أنت ضعيف طائش؛ وإلّا، لوجدت شيئاً تفعله بحياتك عوضاً عن أن تُفكّر في وضع حدّ لها. وأنا، لو تزوّجت يوماً، وهو أمرٌ أجده مستبعداً جداً، فاسمح لي بأن أقول لك إنني سأتزوّج من رجل يعرف كيف يتدبّر أمره بمفرده... رجل يأخذ ما توفّره له الحياة ولا ينهار عند أيّة بليّة.

- أوّ تظنين أن هذا ما أقوم به؟ سأل دافيد بنبرة شرسة.
- أظنّ أنك شاب، ليس عنده خبرة... ومثير للملل.
- مع اني أحبّك.

- هذا هو نوع الحبّ الذي لا أرغب فيه.
- مع أنّ زمناً مضى كنت فيه تحببيني على ما يبدو.
- كان ذلك قبل أن أعرفك عن كتب. هل تساءلت يوماً عمّا لديك تقدّمه لامرأة... عدا لقبك، بالطبع؟
كانت نيقادا تتوخّى، بلا ريب، أن تكون جارحةً.

- كُفّي عن التكلّم دائماً على الرجال، صرخ دافيد بعنف. لا يهمني ماذا تفكّرين بالرجال الآخرين. مشاعرك نحوي هي التي تهمني. أنا أحبّك، نيقادا، وأرغب في الزواج منك. لطالما طلبت منك ذلك، وإذا استمريت في الهزء منّي واعتباري دمية مضحكة، فأنا قادر على ارتكاب عمل لا تُحمد عقباه.
كان تايرون ستروم قد علم أن ابن أخته، دافيد ميريل، هو المتكلّم.

- دافيد، أنت الآن تُمثّل دوراً كوميدياً. سوف تجني ثروة على المسرح! وهذا العمل الذي لا تُحمد عقباه، أتوق إلى معرفة فحواه!

وساد صمت، ثمّ قال دافيد ميريل بلهجة صارمة:
- إذا أردت الحقيقة كاملةً، فقد فكّرت في إطلاق رصاصه في رأسي.

عندها دوّت ضحكة رفيقته
- كم هذا سخيف! كنت أظنّ أنك ستقوم على الأقل بعمل طريف! كلّ عشاقى الهائمين في حبّي يهدّدون بقتل انفسهم؛ لكنهم لا ينفذون تهديدهم أبداً.

- قد تُصابين بصدمة يوماً ما.
- صدمة؟ لا... بل قلّ مفاجأة! قد يكون من الممتع رؤية جثة بلا حراك... فانا لم أر مشهداً كهذا من قبل.

- نيقادا! لا تقولي هذا. أنا أحبّك. كم عليّ ترديد هذا على مسامعك؟ احبّك بعنف. لا أنام من فرط التفكير بك. قولي إنك تقبلين بالزواج منّي. أقسم أن أجعلك سعيدةً.

جلس دافيد ميريل على إحدى كراسي الحديقة ووضع رأسه بين يديه.

- ما العمل، خالي تايرون؟ إنها تُفقدني صوابي.
- هذا تقريباً ما فهمته.

جلس تايرون ستروم قرب ابن اخته وقال بعد لحظة صمت:
- لستَ ترغب في الاستماع إلى التّفاهات المعتادة في مثل هذا الظرف، وليس عندي نيّة في إقائنها. هل يمكنني على الأقل اقتراح بديل، بدلاً من أن تبقى هنا تغيساً؟

- وما العمل؟ سأل دافيد ميريل، وقد بانَ عليه البؤس. بدا لي في البداية أنها تُحبّني ثمّ راحت تجد الرجال الآخرين أكثر جاذبيّة منّي. أحبّها، وأعجز عن التفكير في شيء آخر. وبما أنها لا ترغب في الزواج منّي فمن الأفضل أن أموت!
- قلتُ لك إنّ عندي لك اقتراحاً آخر، هل تودّ الاستماع إليّ؟

- حسناً.

لم تكن النبرة لطيفة.

- كنتُ في باريس البارحة مساءً، قال تايرون ستروم. نزلتُ في فندق ريتز حيث التقيتُ ثلاثة أصدقاء قدامى كانوا يستعدّون للذهاب في رحلة صيد كبيرة.

كانوا في البداية أربعة، بيد أن أحدهم اعتذر بحيث طلبوا منّي الإنضمام اليهم.

ولمّا بدا الإهتمام على ابن اخته، أضاف تايرون ستروم:
- إنّ هدفهم ليس الصيد فحسب؛ بل يرمون أيضاً إلى

- إذا كان هذا هو الرأي الذي كوّنته عني، فليس عندي ما أضيفه، أجب دافيد.

- لا شيء، قالت نيفادا برضى. إذاً، لا تزعجني في المستقبل. جدّ لك امرأة أخرى يُمكنك أن تتباكى بالقرب منها؛ فثمّة نساء تعبدن الكلاب الصغيرة التي تنبح.

ابتعدت وهي تتكلّم، وسمع تايرون ستروم من فوق الشُرّفة وقع كعب حذاءها العالي على الطريق المبلّطة. ولمّا انحنى أكثر، تمكّن من رؤية ابن اخته وقد برز وجهه من ظلّ تلقّيه إحدى أشجار السرو.

كانت علامات الحزن بادية على وجهه المشدود إلى البحر. ثمّ رأى تايرون ستروم الشاب يتناول شيئاً من جيبه. وإنّ دفعته غريزة الرجل المعتاد على الشعور بالخطر، فقد سارع الى وضع رجله فوق الدرازين ثمّ تعلّق به بيديه قبل أن يهبط أرضاً.

وأدرك ابن اخته. كان دافيد ميريل ينظر اليه، مشدوهاً، ومسدّسه في يده.

واقترب تايرون ستروم.

- مساء الخير، دافيد. يُخيلُ إليّ أنني وصلت في الوقت المناسب، اليس كذلك؟

- خالي تايرون! صرخ دافيد أخيراً.

- بنفسه! أجب تايرون ستروم بخفّة.

ثم أخذ المسدّس من يد ابن اخته ودسّه في جيب بنطاله.
- لم يكن عندي سوى التنصّت، قال بهدوء؛ فالإعلان عن وجودي كان يُسبّب بعض الإزعاج.

استكشاف مناطق في افريقيا الوسطى يجهلها الناس جهلاً مطبقاً.

سكت فجأة ثم اضاف:

... افهم بالتأكيد أن هذا النوع من المغامرات قد لا يثير اهتمامك، ولكنني أؤكد لك أن رفاقي في غاية اللطف. إنهم من نخبة الصيادين ومن الرحالة المجريين.

- هل تعرض عليّ الإنضمام إليهم؟ سأل دافيد بصوت كئيب.

- ولمَ لا؟ وإلاً، فبإمكانك طبعاً أن تبقى هنا ترزح تحت مزيد من الحزن محاولاً إقناع امرأة لا تريد كما يبدو تغيير رأيها فيك. وأنت، في قرارك، تعرف تماماً أنها ليست من الطراز الذي يغير رأيه.

كان تايرون ستروم، بعد الحادثة التي سمعها، يرى أن نيفادا، أياً تكن شخصيتها، هي شابة كريهة إلى حد كبير، وينبغي على ابن اخته تجنبها. بيد أنه كان على جانب من الفطنة والتحسس بمشاعر الآخرين بحيث لا يذم بأي شكل من الأشكال الفتاة التي يهاها دافيد.

- هل تعتقد أن نيفادا سوف تتحسّر فيما لو ذهبت مع أصدقائك؟

سأل دافيد بعد لحظة.

- أعتقد أن النساء كلهنّ تتحسرن في اللحظة التي يختفي فيها أحد المعجبين، أجاب تايرون ستروم بحذر، وأعتقد أيضاً

أنك سوف ترى الحياة من منظار مختلف تماماً بعد رحلة من هذا النوع.

- هل تريد القول إن علي أن أنسى نيفادا؟ إن أمراً كهذا لن يحدث أبداً، قال دافيد بقوة.

- ليس هذا أبداً ما رميت إليه، أجاب الخال. أردت أن أقول ببساطة إنك ستصير أكثر مثاراً للإهتمام. يقولون إن السفر يفتح الذهن. وهذا القول مجرد ترداد. إذ أن الأمر يتعلق كثيراً بنوع الرحلة التي تقوم بها.

ولكن، ثق بأن افريقيا تسنح جملة من الفرص وتُشكّل معين معرفة لا يخطر في بال أحد.

- أعرف ذلك، تتمم دافيد.

- وأؤكد لك أمراً، قد لا يكون مهماً في نظرك، وهو أن مؤسسة الجغرافيا الوطنية لا تعتبر الذين يقومون بمثل هذه الاستكشافات رواداً فحسب، بل بمثابة أبطال أيضاً.

- لو ذهبتُ، قال دافيد كمن يحدث نفسه، لفهمت نيفادا أنني لست ذلك الشخص البلبد والكسول الذي تتصور.

وساد صمت قبل أن يتابع تايرون ستروم

- ثمة صعوبة واحدة.

- أية صعوبة؟

- عليك الإنطلاق في الغد! باستطاعتي الإبراق إلى أصدقائي لإبلاغهم بسفرك، لكنني أعلم أن المركب الذي سوف يستقلونه من مرسيليا يُبحر غداً مساءً على أبعد تقدير.

وساد الصمت من جديد، صمت طويل. وأخيراً، قال دافيد بصوت مرتفع:

- اذهب! تبّاً، يا خالي تايرون، أريد الذهاب! وبما انه ليس بوسعي غير هذا، فسوف أثبت لنيقادا أنني لا أعيش لتسليتها فحسب.

- أنا موثق بأن قرارك حكيم، يا دافيد. ونهض دافيد قافراً

- هل بإمكانك أن تقول لي عمّا احتاجه من ثياب؟
- الأمر سهل. ثم إن لديّ بنادق على متن يختي. قد تلتزم.
- سوف تعيرني إيّاه؟ إنك لطيف للغاية، خالي تايرون.

كان في صوت دافيد نبرة إثارة لم تخفّ على خاله. وفجأة، قال الشاب وقد تغرّب صوته:

- ووالدي! ماذا عساها تقول؟
- اقترح عليك أن تترك أمرها لي، أجب تايرون ستروم. لا تقل لها شيئاً قبل أن احدثها أنا في الأمر. أه! ذكّرتني، أنا ضيفها وعليّ موافقتها في الحال. فلنذهب معاً، ولكن إسمح لي أن آتي بدثاري أولاً.

- سوف آتيك به، قال دافيد ميريل. إنه في غرفتك؟
- نعم، على إحدى الكراسي.

توجّه دافيد نحو الشاليه، ثم توقّف.
- خالي تايرون، أعلم ان طريقة ففرك من الشرفة فيها الكثير من الرشاقة. ولو كنت مكانك لفكرت في الأمر أكثر من مرة قبل الإقدام على ذلك.

- لقد انهشك، بالتأكيد، خالك العجوز المتهدّم، قال تايرون ستروم، وفي صوته رنة ساخرة.

- لم أقل هذا. رنّته لنا في سلفنا يوماً واحداً فقط، فليكن ذلك - لكنك فكرت في ذلك، بدون شك. بيد أن الأمر ليس بذى أهمية. اذهب واحضر دثاري ولنذهب للقاء والدتك.

* * *

- تايرون، وأليس من الخطر بمكان أن يذهب دافيد مع اولئك الرجال إلى افريقيا؟

- من المفروض أن ينضج، هيلين، أجب أخوها؛ ثم أنني استشفيت مما سمعت انه يأخذ على محمل الجد ما اعتقد أنه اول مغامرة عاطفية يمرّ بها.

وتنهّدت هيلين ميريل. كانت لا تزال في غاية الجمال، وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، وكان عدّة رجال يرجونها الزواج منهم، لكنها كانت تصدّم كلهم لأنها كرّست نفسها لولدها الوحيد، وكان أخوها على علم بذلك تماماً.

- نيقادا فان أزين غاية في الجمال، تنهّدت قائلة. يمكننا أن نفهم دافيد وعدداً كبيراً من الذين أفقدتهم صوابهم.

- لقد بدت لي ممّا سمعته من حديثها مع دافيد أنها نموذج مقبوت من تلك النسوة المعاصرات، الباردات العاطفة، والطائشات اللواتي أصادفهنّ منذ بعض الوقت، أضاف تايرون ستروم.

وبدت الدهشة على وجهه شقيقته.
- تعتقد هذا لأنك لم تراها أبداً.

- في الواقع، أين هي منذ انضمتُ إلى مدعوك؟
- لقد ذهبت في سيارة مع جيران آخرين. لم أكن أرغب في ذلك، حقيقةً، غير أنها لم تطلب إذنًا مني.
- بالرغم من أنها تقيم عندك؟ يا لتصرفها المعيب!
وضحكت ليدي ميريل.
- أنت محافظ جداً، يا تايرون. إن الأمريكيات شأن نيقادا تتمتعن بحرية مرفوضة للفتيات الإنكليزيات المسكينات.
- تسنين أنني لا أعرف شيئاً عنها.
- إذاً، دعني أخبرك أن نيقادا شان أُردين هي من أغنى الورثة الأمريكيين.
- ومع كل هذه الثروة، فقد أفرطوا في تدليلها.
- أخشى فعلاً أن تكون على حق، قالت ليدي ميريل. مع ذلك فقد كانت والدتها إحدى أرقّ والطف النساء اللواتي عرفتهن في حياتي. كانت زميلتي في المدرسة. وكانت إليزابيث ابنة دوق قنبريدج قد تزوّجت من كلينت شان أُردين بعد سنة من خروجها إلى المجتمع. اعتقد أنها كانت سعيدة جداً.
كان تايرون ستروم يستمع وعلى شفثيه ترتسم ابتسامة فيها شيء من التهكم. وأضافت شقيقته:
- اعتدنا التراسل بالرغم من صعوبة الاحتفاظ بصداقة مع شخص يعيش في الجهة المقابلة من الأطلسي. كانت نيقادا في الثامنة أو التاسعة من عمرها عندما ماتت إليزابيث ويبدو أن موتها حطّم كلينت شان أُردين.
- من قال لك ذلك؟

- آواه! عدد كبير من صديقاتي الأمريكيات، أجابت ليدي ميريل. لم يعد يهتمّ إلاّ بكسب المال، وأظن أنه لم يكرس وقتاً طويلاً لطفله الوحيدة.
- تُريدين أن أشفق عليها، قال تايرون ستروم بنبرة اتهام. يا هيلين، بأن الشفقة هي الشيء الأخير الذي أمنحها إياه.
- اعتقد أنها تعتبر الشفقة بمثابة إهانة، أجابت ليدي ميريل. إنها واثقة جداً من نفسها؛ وهي متأكدة تماماً من أن العالم موجود فقط لرؤيتها تمشي. والأدهى أنها لا تمشي على الأرض بل على القلوب.
وإذ رأت الإزدراء في عيني أخيها، أضافت ليدي ميريل:
- ... إنتظر حتى تقع عينك عليها. سوف تفهم لماذا لا أمل بناتنا لدافيد المسكين ولا للآخرين الذين يُشاطرونه مصيره.
وسكتت ليدي ميريل ثم تابعت بصوت مضطرب:
- آواه! تايرون، أنا جدٌ قلقة عليه.
- أفهم ذلك.
لم يكن قد حدّث أخته بتهديد دافيد بالانتحار، ولا بأنّه عثر عليه وفي يده مسدّس. وربما كانت ليدي ميريل على علم بأكثر مما يظنّ، ذاك أنها قالت بعد صمت:
- اعتقد أنك على حق، تايرون. لو رحل دافيد، فقد ينسى نيقادا.
- أنا لا أرغب في أن ينساها، قال تايرون ستروم... ما أريده هو أن يفهم أنها شريرة وغير جديرة به.

وقسا صوته قبل أن يُصيف: ... لا أفهم كيف يُفكر رجل عاقل نوعاً ما في الزواج من امرأة تقتقر إلى كل الصفات الأنثوية! وابتسمت شقيقته. - عرفت في حياتك الكثيرات من النساء، تايرون، إلا أنك، مع ذلك، لم تتزوج. - يا عزيزتي، يعود السبب إلى أنني لم أصادف في حياتي امرأة بمثل سحرِك، يمكن أن أجد معها المتعة التي أشعر بها وأنا أتحدث إليك. وأغرقت في الضحك. - إنك تُطريني! - بالتأكيد لا! أنا لا أقول سوى الحقيقة. أجد النساء جذابات إلى أن أُجبر على الاستماع إلى حديثهنّ. وأجدهنّ مُغريات جداً إلى أن تحاولنّ التدخّل في نمط حياتي. - تايرون، إنك لا تريد أن تبقى عازباً طوال العمر. - لمّ لا؟ - كم يكون ذلك محزناً. ثمّ، أريد أن أراك محاطاً بالأطفال. وتنهدت ليدي ميريل - اتحسّر تماماً لأنني لم أرزق سوى طفل واحد. لقد كنت أرغب في دزينة من الأطفال. بيد أنك على علم بأن الطبيب أوضح، بعد ولادة دافيد، بأنني لن أرزق ولداً غيره. ووضع تايرون يداً على شقيقته. - تأخّر الوقت لأن تُرزقي أطفالاً، ولكنّي أرغب في رؤيتك

تتزوجين مرّة ثانية وتسعين من جديد. وأنا متأكد من أن طالبي الزواج كثيرون.

هنا، ابتسمت شقيقته.

- واحد أو اثنان. غير أنني أشعر أن من واجبي تكريس نفسي لدافيد حتى يجد لنفسه مركزاً في الحياة. إن فيه أحياناً هزيمة متوحشة تلقي في قلبي الرعب.

- هذا يعني أيضاً، يا هيلين، أنه سنّ الرشد. إن زوجاً إلى جانبك سيساعدك على فهم دافيد ويُرشدك على طريقة معالجة أمره.

- هل كلّ حال، لم تكن فكرة إرساله إلى أفريقيا لتخطر في بالي.

- إنها لسلامته، حتى وإن تألمت للإبتعاد عنه.

- بصراحة، إنّه لمن دواعي سروري أن يرحل إذا كان ذلك كافيلاً بأن يجعله ينسى نيقادا فان أُرّين. لقد جعلته غاية في التعاسة. لكنّها، في الوقت الحاضر، تفعل الشيء نفسه مع داندونالد الشاب.

- ابن جيرالد؟ سأل تايرون.

- نعم. إنك تتذكّره، اليس كذلك؟ شاب لطيف للغاية.

سكتت ليدي ميريل ثمّ أضافت:

... بالطبع، ليس من سبب يحول دون زواج نيقادا منه:

سوف يصير مركزياً يوماً من الأيام. وأخال أن كل الأميركيين

يسهّون الألقاب.



- أه، إذا، هوذا ما تسعى خلفه... ولكن، في هذه الحال، لماذا لا تتزوج من دافيد؟
 - لا أملك جواباً على ذلك. إلا إذا كانت تعتقد أنّ المركيز هو نصيب أفضل.
 وعضّ تايرون على شفثيه إذ استشفّ في صوت شقيقته شيئاً من المرارة. أخيراً، قالت ليدي ميريل بجهد:
 - على ذكر الألقاب، تايرون، قيل لي إنك رفضت لقب فارس من رتبة القديسينّ جاورجيوس وميخائيل. لماذا فعلت ذلك؟
 - من أخبرك بالأمْر؟
 - شخص يعرفك وشديد الإعجاب بشخصك.
 - على هذا الشخص أن يُبرهن على ذكائه بأن يحفظ لسانه. إنّ ذلك لصحيح إذ... لقد عرضوا عليك الوسام المذكور؟
 - كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، أجب تايرون متهرباً. بيد اني افهمتهم بوضوح أنني لست مهتماً بالألقاب ولا بالأوسمة.
 - كنت لأفخر بك.
 - وهل احتاج حقاً إلى لقب لأحظى بذلك؟
 - لا، بالتأكيد لا. تعرف تماماً أنني أجدك رائعاً، منذ زمن طويل. لم أتعرف إلى رجل مثلك، تايرون، غير أنني أريد أن يعرف العالم بأسره كم أنت شخص غير عادي.
 نهض تايرون ستروم ضاحكاً.
 - إنك تتركين نفسك فريسةً للتقاليد الإجتماعية التي تُفسدك. فأننا ما إن تطأ قدمي لندن أو الريفييرا حتى أتُحقّق إلى أية درجة هذا العالم سخيف بالنسبة إلى الأرض بأسرها.



إنك على حق بدون شك، اعترفت الأخت. أنا أعبدك مهما فعلت ومهما لم تفعل. تايرون، أنت أظرف وأروع أخ قد تحلم به امرأة.
 - إذا، ثق بي لأعمل المناسب فيما يتعلّق بدافيد.
 - إنني أثق بك ومقتنعة، بصدق، بأنك على حق.
 - أعرف ذلك.
 وقبّل تايرون اخته على خدّها.
 - إنّهبي ونامي يا عزيزتي، قال لها. سوف نتكلم في ذلك بالتفصيل غداً صباحاً. لا تنسي أن على دافيد أن يركب قطار الساعة الثانية.
 - سوف يسهر رونالدسون على كل شيء، قالت ليدي ميريل. لقد سمعت دافيد يطلب منه إعداد الأغراض اللازمة له.
 - لن يعجز رونالدسون عن ذلك. فهو لم يخذل أحداً منّا، قال تايرون مبتسماً. عمت مساءً، يا عزيزتي. حاولي النوم. فثمة أشياء لا يمكن حلّها قبل صباح غد.
 ووجه إلى شقيقته إحدى ابتساماته التي كان يقول فيها أنها لا تقاوم، قبل أن يبارح الغرفة.
 نزل تايرون ستروم الدرج قاصداً الشاليه.
 كان الوقت متأخراً جداً، أو بالأحرى مبكراً جداً، وكان الخدم قد أووا إلى النوم بعد أن أعادوا ترتيب المكان.
 كانت القيلأ هادئة. وقد بقيت الأنوار في الممشى مضاءةً لتعكس على المزهريات الكبيرة الموضوعه على المناضد.

بالتأكيد! كنا في انتظارك البارحة. لقد أخبرني دايفد الكثير عنك.

وأنا أيضاً، أنسة فان أرين، سمعتُ الكثير عنك.

الكثير من الأخبار المحففة بحقي، كما أنا موقنة. بالتأكيد!

قال الكلمة بهدوء، لكنّها رنّت بغرابة كالإهانة. نظرت إليه من تحت رموشها الطويلة السوداء ثم رفعت رأسها:

هوذا إذاً المستكشف، المغامر، والسيد الذي تُحاط مآثره بالأسرار، مستعدّ للإنتقاد.

وهل كنت تتوقّعين شيئاً آخر؟

لم أكن أتوقّع شيئاً، سيّد ستروم. ببساطة، من العجب أن يكون لديك أحكام مسبقة.

فقط عندما يتعلّق الأمر ببعض الأشخاص. بي، بوجه خاص.

وقامت نيفادا بحركة في غاية الغنج، كما اعترف تايرون ستروم في سرّه.

أنسة فان أرين، إنك تضعين نفسك في وضع يعرّضك للإنتقاد.

وهو أمر أفضله تماماً على أن أكون فاقدة الشخصية لا تأثير لي على الناس الذين أصادفهم.

أنا متأكد من استحالة حصول هذا الشيء.

كان اعترافه هذا مديحاً لها، وإذ رأى في عينيها ما يُشبه الضحك، شعر وكأنّها تسعى عمداً الى إثارتة وإغرائه.

كان تايرون ستروم يرى في تلك الأزهار شعاراً للطهارة وكان يتشوّق الى التأمّل فيها حالما يعود الى الجنوب.

كان يحدّق في الأزهار المنسّقة بطريقة فنيّة تُبرز فتنتها الساحرة عندما فُتح الباب الأمامي، ودخل أحدهم. أدار رأسه. فكان الداخل شابّة. كانت تلبس وشاحاً أبيض فوق ثوب من اللون نفسه، وبدت له، للوهلة الأولى، أكثر طهارة وكمالاً من الأزهار التي كان مُعجباً بها.

وإذ أغلقت الباب خلفها، خلعت منديل المسلمين الذي يُغطّي رأسها؛ فظهر شعرها الأشقر المتّوَجّ العزيز على قلوب رسّامي فيينا.

كان وجهها صغيراً على شكل قلب، وقسماتُه خالية من العيوب، والعينان الواسعتان تبدوان من نسج الخيال. ظلّ تايرون في بادئ الأمر أنهما سوداوان ثم تبين له حين تقدّمت نحو الضوء، انهما خضراوان.

كانت الفتاة تحدّق به. وشعر تايرون بأنهما يتبادلان النظرات بشكل لا يخلو من المعنى. ثم قالت أخيراً:

من أنت؟

ما إن سمع صوتها حتى عرف مَنْ هي.

أنا تايرون ستروم، أجا، شقيق ليدي ميريل، و... خال دايفد.

وركّز على الكلمتين الأخيرتين فارتسمت ابتسامة على شفطي نيفادا الحمراوين وهي تُجيب:

بصيف «أن يقع دافيد الإنكليزي المسكين، تحت سحر هذه
الاهمى الغريبة. لا، طبعاً، وبالنظر إلى شعرها الأصهب، أفلا
يجدر بي تشبيهها بالساحرة؟»

وإذ قفل راجعاً الى الشاليه، ففكر تايرون ستروم في الطريقة
الشريرة والكريهة التي تحدثت بها مع ابن اخته: كما تذكر
رأس الشاب وحزنه.

كان يدرك تماماً أنه لو لم يصل في الوقت المناسب، ولو لم
يستمع صدفةً الى تلك المحادثة من شرفته، لكان دافيد ارتكب
ما من شأنه أن يحطم قلب والدته.

وحدها المصادفة أتاحت له الحؤول دون وقوع هذه الكارثة.
لهذا السبب، صرخ تايرون ستروم عندما وصل إلى غرفته:
«تباً! هذه الساحرة الصغيرة تحتاج الى درس حقيقي. وأرجو
من السماء أن تتلقن هذا الدرس».

وتأكد من هذا الشعور عندما أضافت:
- لقد عشت منذ زمن طويل في المناطق الموحشة حتى فقدت
كل صلة بالحضارة، سيّد ستروم. وإنّي أوكد لك أنه من الممتع
أن ينكشف جهلك في المستقبل وتظهر العيوب في البطل الذي
يهتف له الجميع.

كانت كل كلمة تلفّظت بها بصوت منخفض بمثابة ضربة
خنجر.

ثمّ توجهت نحو الدرج. ولما مرّت بالقرب منه، شمّ منها
رائحة المسك الرومي فارتأى أنه لا يلائم شابة مثلها.

- عمت مساءً، سيّد ستروم، قالت وهي تضع يداً على
درابزين الدرج. أمل أن القاك مرّة أخرى، ولكن أعذرنى إذا
قلت لك إنني أجدك حتى اللحظة مخيباً للأمال.

كانت عيناها الخضراوان تتسعان بيثارة وشفتها تصقلان
كل كلمة تقولها.

وبأنافة الملكة، صعدت الدرج ببطء، تدرس كل حركة تقوم
بها، متأكّدة تماماً من أن تايرون ستروم ينظر إليها.

وإذا به ينفجر من الضحك عندما سمع باب غرفتها يُغلق
خلفها.

لم يكن ثمة شك في أن الأنسة فان أردن كانت بغیضة
وقاسية؛ وكانت المثال الحيّ لكل ما كان تايرون ستروم يكرهه
عند فتيات ذلك العصر. كان صحيحاً أيضاً أنها، في الظاهر، لا
تهتمّ أبداً بما ينتظر منها أن تكون.

«ليس في الأمر ما يدعو للدهشة»، قال في سرّه قبل أن



ان تايرون ستروم يتناول طعام الفطور على المصطبة، خارج الشاليه. وكان كعادته قد نهض في ساعة مبكرة. فنداوة الصباح تحت نور الشمس الباهت كان لها بالنسبة إليه مفعول السحر.

كان تايرون ولا يزال مغرماً بألوان المتوسط الفاقعة ولم يكن ليستهو به شيء أكثر من المشهد الذي يطلّ عليه من الشاليه، وسقسقة المياه في الحديقة، تحته مباشرة، وتلك الأزهار الغريبة التي تعرّش أمامه على الدرابزين.

كان قد استلقى مفكراً بهوم شقيقته المتعلّقة بابنها، لكنه نام نوماً عميقاً خالياً من الأحلام بحيث كان يشعر صبيحة هذا اليوم بلياقة كاملة وبمزاج رائق.

ومن أسباب راحته وارتياحه أنه لم يعد مشغول البال بأهمية مهمته ولا بالخطر الذي يتهدّده. لقد كان متأكداً من هذا الأمر.

كان قد شعر، خلال السنوات الماضية، بأنه أكبر سنّاً مما

هو عليه في الواقع، لكنّه يحسّ في الوقت الحاضر بأنه تلميذ في عجلة، مستعدّ للإستفادة من كل دقيقة.

إختار بضع سمكات من طبق اصطياد ما فيه عند العشيّة، وفكّر انه متى يرحل دافيد الى افريقيا فسوف يُسعدّه أن يجادب واخته أطراف الحديث كما لم يفعل منذ سنة.

لم يكن من باب المديح قوله لها إنه يجدها أكثر ذكاءً وجاذبية من النساء الأخريات اللّاتي عرفهنّ. كان يحبّ هيلين لأنها متفهّمة وفائقة الأنوثة إنّ في تصرفاتها أم في شكلها.

كان تايرون ستروم قد عاش حياة شاقة وصعبة علّمته أن يكون قاسي القلب وأحياناً متحجّر العواطف، حسب رأي الكثير من الناس. في مقابل ذلك متى وُجد مع امرأة، يطلب منها أن تكون لطيفة وطبيّعة.

كان ذلك ما فتّش عنه لدى جميع النساء اللّاتي أحبّهن، وإذ فكّر في نيقادا، لاحظ أنها تمثّل كلّ ما يكرهه في الشابات. وكما لو أنّ مجرّد التفكير فيها كان كافياً لتظهر أمامه، فقد

سمع وقع خطوات خلفه. إلّفت، فرأى دافيد ونيقادا يعبران المرحلة التي رويت بعناية، ويتّجهان نحوه.

كانت معالم نيقادا بارزة أمام شجر السرو المعتم، وكالليلة الغائنة، كانت غاية في الجمال والفتنة.

لم تكن تعتمر قبّعة، وكانت الشمس تنعكس على شعرها السنّ من اللهب.

كانت عيناها خضراوين تماماً وبشرتها بيضاء كامدة.

نهض تايرون ستروم ببطء وقد غاظه أن يُزعج وقت تناوله طعام
الفتور.

- صباح الخير، خالي تايرون، قال دافيد، وفي صوته نبرة
انفعال ظاهرة. غمسة لبقية، قال دافيد، أنتما هنا.

- صباح النور، دافيد. صباح النور، أنسة فان أردن، قال
تايرون ستروم. هل تسمحان بأن لا أقطع فتوري. يُدهشني
انكما إستيقظتما باكراً.

- إننا هنا لأن رونالدسون أخبرنا بأنك تنوي الذهاب إلى
نيس، قال دافيد.

- هذا فعلاً ما عزمْتُ عليه، أجاب تايرون ستروم. لقد قلتُ
لك البارحة مساءً إنَّ علي متن يختي بعض البنادق والمعدّات
التي قد تفيدك في افريقيا.

- لا أريد أن تقوم برحلتك عبثاً، قال دافيد. أو فستكون
كانت الكلمات مترددة نوعاً ما. وفجأة، تدخلت نيقادا، وفي

صوتها رنة انتصار: لا أريد أن أكون هنا معكم، ألقوا بحملتي
- ما يقصده دافيد، سيّد ستروم، هو أنه لن يسافر.

كانت عيناها الخضراوان مسمرتين في عينيه ففهم تايرون
ستروم أنها تتعمد ما قرأ فيهما من تحد.

رفع الخال حاجبيه دون أن ينبس ببنت شفة، وشرح دافيد
بشيء من الضيق:

- البارحة مساءً، كتبتُ إلى نيقادا رسالة أخبرها فيها عن
ذهابي إلى افريقيا؛ وهذا الصباح، أقنعتني بأن أبقى هنا
لاعتني بها.

وبالتأكيد، سوف تفي بوعدك، أجاب تايرون ستروم.
أو كان دافيد ينتظر من خاله أن يعترض، أو خيّل للفتاة

والشباب أنه سيفضّب أو يثور حيال تغيير رأي ابن أخته،
فستكون يخبب أملهما، ففكر تايرون ستروم.

- أرايت، يا دافيد، قلتُ لك أنك تتعذّب من أجل شيء لا
تذكر، قالت نيقادا. رأيتنا، نيقادا، رأيتنا، نيقادا، رأيتنا، نيقادا.

وإذ كانت تتكلّم، تناولت قطعة خبز محمّص من سلّة الخبز،
وضعت عليها القليل من الزبدة ثم أضافت ملعقة صغيرة من
العسل، وقضمت قطعة الخبز بأسنانها البيضاء التي تشبه

الآلية. فحسبها ألقبتُ دائماً، بعضاً في رغبة في البقاء.

- لذيذاً! قالت. لا أدري لماذا لم أطلب أن يؤتى لي بالعسل.
كأن أنسى كم هو لذيذ في هذه المنطقة.

كان دافيد ينظر إلى خاله. كان دافيد ينظر إلى خاله.
- لا أريد أن تحسبني عقوقاً، خالي تايرون، بعد العرض
الذي قدّمته لي مساء البارحة. أخبرني رونالدسون أنك أرسلت

برقية إلى أصدقائك. كم أنا متأسّف، ولكن، غني عن القول إنني
أود البقاء هنا لأن نيقادا ترغب في ذلك.

- بالتأكيد، أرغب في ذلك، قالت نيقادا. احتاج إلى مرافق
معمل ومميّز لبراقصني وليصطحبني إلى كل تلك الأماكن
الضاربة التي تحيط بنا.

ولكن، كل شيء كان يبدو بالأمس مملاً في نظرك، لاحظ
دافيد، سألتني هذا في رغبة وسقيتني لا أعتقد أنني

- كان ذلك بالأمس، أجابت نيقادا بسرعة مُرفقة قولها

بحركة من يدها. اليوم، غيّرت رأبي. سوف تكون لنا مشاريعنا، دافيد. سوف نستكشف المناطق المجاورة.

- هل تريدان أن نقوم بذلك في إحدى عربات خيل والدتي؟
سأل دافيد. أو أنك تصرّين على أن نستقلّ عربة تشارلي الصاخبة والمُنتِنّة؟

- إنها لفكرة، أجابت نيفادا. ولكن، لنقلّ عرضاً إنها ليست نتنةً وهي سريعة جداً.

- سريعة للغاية، قال دافيد بصوت كئيب. تعرفين تماماً أنه من الخطر قيادة السيّارات بسرعة جنونية على هذه الطرقات.

- أحب أن أعيش في الخطر، أجابت نيفادا بسرعة. هكذا ينبغي أن نعيش. أنت توافقني الرأي، مستر ستروم، اليس كذلك؟

حدّقت بتايرون ستروم، فاتحة عينيهما الخضرواين لتظهر فيهما تعابير البراءة، مما أسبغ على سؤالها مسحة من السذاجة والملاطفة.

تأمّلها تايرون ستروم، وفي نظره بريق سخريّة.

- أنسة فان أُردين، اتساع إن كانت لديك فكرة عن الخطر. لا. إلا إذا كنت تلمح إلى الخطر الذي قد تعرّض له متى كنت وحيدة تحت ضوء القمر برفقة رجل جذاب.

- متى حدث هذا؟ سأل دافيد بغيرة. لم تُخبريني بذلك أبداً.

- عزيزي دافيد، لا تتوقّع مني أن اعترف لك بكل مغامراتي العاطفية. ثم إنك تعلم مدى كرهني للغياري.

كيف تريدان مني ألا أبار؟

- إن الغيرة - شأن الحب - هي انفعال باستطاعتي الإستغناء عنه، أجابت نيفادا بصوت غنّج. فالحب والغيرة يمنعانك من الإستمتاع بالحياة؛ ولكن، لا يغرّنك الأمر فأنا عازمة على التلهي.

كان دافيد ينظر إليها نظرة متوسّل خائب.

ليس من المدهش، فكّر تايرون ستروم، أن يتعلّق بها الشاب إلى هذا الحد. فنيفادا، بدون شك، من أجمل المخلوقات اللآلئي وأهنّ في حياته. ومن المؤسف فقط أن تكون في الوقت نفسه إحدى أزعج النماذج التي صادفها أبداً.

كان قد فهم تماماً أنها تسعى لأن تُثبت له تأثيرها على دافيد، والإستخفاف بسلطته؛ وكان واضحاً أنها لن تتراجع أبداً للوصول إلى غايتها.

وبعد أن أكلت قطعة الخبز بالعسل، قالت:

- اعتقد، مستر ستروم، أنه من غير المجدي إشراك اليوم في مشاريعنا؟

- وهل هذه دعوة توجّهينها إليّ؟

فاجأتها الطريقة التي تكلم بها. ألقت عليه نظرة سريعة استلّج منها تايرون ستروم، بفضل خبرته الطويلة بالنساء، أن الغلاة اعتبرته للمرّة الأولى هدفاً يمكن إستمالته.

- ولم لا؟ قالت. أوّذ لو أسمعك تتحدّث عن ماثرك... هذا إذا قرّرت ذلك في النهاية.

- نظراً إلى رغبتك في التسلية، فإني أخشى أن تُدخل
 مغامراتي الملل إلى نفسك.
 - آواه، مستر ستروم، أنا على ثقة من أن ما من شيء تفعله
 يسبب الملل.
 - إن المغامرات كلها، حتى غير المتوقعة، قد تحتوي على
 لحظات رتيبة، خصوصاً عندما نكون بمفردنا.
 - في هذه الحالة، ينبغي علينا أن نحاول تعويض تلك
 اللحظات التي أحسست فيها بالوحدة، قالت نيفادا بهدوء.
 - إن هذا لإطراء لي، إبتسم تايرون ستروم، ولكنني لا أريد
 أن أفرض نفسي عليك وعلى دافيد. إن لكما، على الأرجح، شأناً
 معاً وأخشى أن أكون رقماً زائداً.
 - لا، بالتأكيد لا، أجابت نيفادا في الحال. نحب أن تكون
 معنا، ليس كذلك، دافيد؟
 - إذا كانت تلك رغبتك، أجاب دافيد، دونما حماسة تُذكر.
 وكاد تايرون ستروم ينفجر ضاحكاً أمام هذه الشابة العديمة
 الخبرة التي تعتقد نفسها على وشك استمالته.
 كان قد غازل بعض أجمل النساء الشهيرات في أربعة أقطار
 العالم. لذلك لم تخدعه أبداً تلك البراة في عيني نيفادا
 الواسعتين.
 في الوقت نفسه، لاحظ أن ابن اخته يرمقه برؤية، وقد غار
 من اهتمام نيفادا به.
 - دافيد، قال ستروم، أريد أولاً أن أطلع على رغبة والدتك.
 كان من المتوقع أن تزور يختي.

آواه! أرغب في زيارته أيضاً! صرخت نيفادا. هل توافق
 على ذلك؟ أنا مهووسة بالمراكب.
 - بالتأكيد، أجاب تايرون. فمن دواعي سروري أن تزور
 «هولاي».
 - وهل هذا هو الإسم الذي أطلقته عليه؟
 - نعم. قد لا تعلمين أن الإسم عربي ومعناه «السيد». أنا
 أعبر أن يختي ملك بين المراكب الأخرى.
 - آواه! إذا، ينبغي أن أشاهده دون تأخير! قالت نيفادا
 بذهرة ملحاحة. أرجوك، أقنع ليدي ميريل بمرافقتنا جميعاً لرؤية
 «هولاي».
 - هل نسيت أنك طلبت مني إرسال كلمة إلى تشارلي أعلمه
 فيها برغبتني في لعب التنس (كرة المضرب) قبل طعام الغداء في
 الغيلاً خاصيته؟! قال دافيد باستياء، إن الخادم في طريقه إليه
 الآن، بدون شك.
 - نعم، بالفعل، أجابت نيفادا. لا بأس في الأمر. أرسل كلمة
 الخدمي صغيرة قل له فيها إنك مشغول جداً.
 وطرات على رأس تايرون ستروم فكرة أن نيفادا قد رتبت
 كل شيء بحيث لا يُتاح لدافيد التفكير في المشروع الإفريقي
 الذي تخلى عنه.
 - ربماً لم ينطلق الخادم بعد، قالت بسرعة. حاول إيقافه.
 - فليكن. بيد أن تشارلي سوف يخيب أمله.
 - سوف أعمل على مؤسساته فيما بعد، قالت نيفادا، بغير
 إكتراث.

أودّ لو تدعوني نيفادا. أنسة أردن فيه الكثير من التكلّف.
 أنت غاية في اللطافة. أليس كذلك؟
 وحدهم الذين يعرفون تايرون ستروم معرفة حقّة، كان
 بإمكانهم أن يدركوا أنّه ليس بمتهمك فحسب؛ فقد كان في
 عهده ومضة خبث تُثبت أنه يتمتّع بهذا الحديث.
 لم يكن قد نسي لحظةً أنّه انقذ دافيد من ارتكاب عمل كان
 من شأن عواقبه في الوقت الحاضر أن تلتّف بالحزن العميق
 سبباً للغيال بأسرهم.
 كان قد قرّر محاربة هذه السّاحرة بوسائله الخاصة.
 وبالرغم من أنّها وافته إلى الحديقة لتحتفل بانتصارها، فقد
 كان يعلم أنها تكرهه لإقدامه على انتقادها مساء البارحة وأنها
 اعتقدت بأنها تتأثر لنفسها بجعله أسير هواها.
 كان من الواضح تماماً أنها معتادة على أن يقع الرجال في
 مائلها من النظرة الأولى بحيث يفقدون صوابهم، كما هي حال
 دافيد.
 كان جمالها لا يقبل المنازعة؛ إلاّ أنه كان جمالاً لا يوازي
 بشرفه وسوته جمال ميدوزا السّاحرة التي كانت من جهتها، على
 الأقل، تُنذر الرجال بشرّها حين تجعل الأفاعي في ضفائرها
 بأسرها.
 كان في ضفائرها شعر نيفادا قدرة على السّحر خاصة بها. زد
 على ذلك أنه كان يستحيل على غالبية الرجال ألا يفقدوا
 صوابهم متى نظرت إليهم نيفادا من تحت رموشها السوداء،
 وفي عينيها أسرار الشرق بأسرها.

كان دافيد جالساً على مسند كنبية بالقرب من الطاولة
 الصغيرة، فوقف وأتجه نحو الفيال. أليس كذلك؟
 عندما غاب عن النظر، قالت نيفادا: أليس كذلك؟
 - قد أكون ارتكبتُ خطأً بمنعني دافيد من العمل بنصيحتك.
 ربما كان الأمر ممتعاً أكثر في غيابه.
 كان في صوتها تلميحاً أثار في تايرون ستروم رغبة جامحة في
 ضربها على قفاها. لكنّه اكتفى بالإجابة بصوت عذب:
 - خُيّل إليّ أنه سيسعد أكثر بصيد السّباع.
 وهكذا ينساني، بالتأكيد! إنه الحلّ الكلاسيكي لتخليص
 شاب متيّم من شخص لا يثير الإعجاب.
 - وهل قلتُ ذلك؟ سألت تايرون ستروم.
 - المحتّ إلى ذلك البارحة مساءً.
 - ربما جاء حكمي متسرّعاً جداً ولم يرتكز إلاّ على شائعات.
 - وهل غيرت رأيك في الوقت الحاضر؟
 - أما زلنا نتحدّث عن دافيد؟
 كان تايرون ستروم يلعب على الكلام. وكان الحديث شبيهاً
 بالمبارزة حيث لكل جملة معنى مستتر قاطع كحدّ السيف.
 - أظنّ أنّك تخيفني بعض الشيء، مستر ستروم.
 كانت شفتاها تتلاعبان بالكلمات كما خفضت عينيها بحيث
 تبدو للرجل الذي تعوزه الخبرة قليلاً أنها خجلة وناهية.
 - ليس هذا شعوري بتاتاً، أجب تايرون ستروم. يبدو لي،
 أنسة فان أردن، أن ثمة أشياء علينا أن نعرفها الواحد عن
 الآخر.

الظلمة الخفية التي كُرِّرتها مرّات عدّة أمام مراتها، كما حُيِّل
إلى تايرون.

مشياً جنباً إلى جنب ببطء نحو القيلآ، وكانا على وشك إدراك
الدرج الأبيض الطويل عندما هبط عليهما دافيد.

لم يكن في اليد حيلة، نيقادا. لقد انطلق بالرسالة. ولكن،
بإمكاني إرسال الخادم مجدداً مع رسالة أخرى حال عودته.

بعد التفكير في الأمر، أظن أنه من غير اللائق... بدأت
نيقادا.

ورفض تايرون ستروم أن يستمع إلى أكثر من هذا. ترك
الإثنين وصعد إلى عند شقيقته.

كان يعرف أنها لا تستيقظ في ساعة مبكرة؛ وبالفعل، رآها
جالسة في سريرها، تلبس رداءً خفيفاً من الموسلين الأزرق،

شابة وفاتنة، تستند إلى كدسة من الوسائد المطرزة بالدنتيلاً.
صباح الخير، عزيزي تايرون. كنت أمل أن تأتي.

إنحني يقبلها على خدّها ثم جلس على حافة السرير، وقد
أخذ يدها بيده.

هل نمت هنيئاً، سألته. أنت في غاية الأناقة هذا الصباح.
أتلهف إلى تعريفك بصديقاتي لتعرفن كم هو جميل أخي.

لك عندي، للأسف، أخبار سيئة.
وشعر بها تتشجج.

تلك الشابة، نيقادا، أقنعت دافيد بعدم السفر إلى
أمريكا.

أواه، لا! صرخت ليدي ميريل. لقد فكّرت في الأمر الليلة،

أسفة لأننا لم نتكلّم الليلة الماضية أكثر مما فعلنا، قالت
الشابة بصوت عذب. ولكن، في النهاية، ثمة ليالٍ أخرى كما أن
ضوء القمر يجعل من هذه الحديقة أكثر المناطق التي زرّتها
رومنسيّة.

هذا هو رأيي أيضاً، قال تايرون ستروم موافقاً.
إذاً قد يكون بإمكاننا مشاهدته معاً، اقترحت بصوت

لطيف.
ولم لا؟ ولكن، ينبغي الآن نفوّت الساعات المشمسة.

لا، بالتأكيد. ثم إنني أريد أن أشاهد يختك.
وتأمّلته قليلاً قبل أن تقول:

سوف أرسل دافيد ليلعب التنس. لأنه سيزعجنا ليس
إلا، متباطناً خلفنا، في حين أن لديّ الكثير أسالك إياه.

يا للفكرة الرائعة! هتف تايرون ستروم. ربّي الأمر مع
دافيد بينما أذهب لرؤية أختي.

نهض وهو يتكلّم، فحدت نيقادا حذوه.
كان لكل حركاتها تأنق خاص. وراح يفكّر كم هو من

الصعب تصديق مدى خطورتها، وهي في ثوبها الأبيض وشعرها
الأصهب المتوقّد.

وابتسم الإبتسامة التي لا تقاوم حسبما ترى النساء اللاتي
مررن في حياته.

من دواعي سروري أن أستقبلكِ على متن «مولاي»،
كم سيكون ذلك مثيراً! أجابت نيقادا وهي تصرعه بتلك

التي بمفردها طالبة فقط من أحد عمال البريد مرافقتها خلال الرحلة.

إذاً، وصلت بمفردها، أضاف تايرون ستروم.

نعم. لقد تركت وصيقتها إلى جانب السيّدة لانغهوم - إنه اسمها على ما اظن - راجيةً مني أن أجد لها امرأة فرنسيّة تذهب عنها طيلة إقامتها عندي.

هكذا إذاً، أمامها ثلاثة أسابيع تمضيها هنا، قال تايرون وبدأ على شقيقته الإنزعاج.

لاكون صادقة معك، أعترف لك بأنني قلت ثلاثة أسابيع... أو المدّة التي ترغب في قضائها. لم أكن أعلم حقاً ما هي عليه ابنة اليزابيت، ولا مدى جمالها.

وتنهّدت ليدي ميريل.

إن جمالها لا يقبل الجدل، بيد أن وجهة استعماله هي المزعجة. آواه! تايرون، حاول إقناع دافيد بالسّفور.

لقد أعلمته نيفادا بأنها تحتاجه مرافقتها والترفيه عنها. وضعت ليدي ميريل يديها فوق عينها.

لا أريد أن أتصوّر حالة دافيد عند انتهاء زيارة نيفادا. إنه يقع فريسة المرض. لقد أخبرني رونالدسون بأنه يذرع غرقته في منتصف الليل وهو يدخن، وهذا أمر لم يكن يفعله فيما مضى، ولعلك لاحظت أيضاً أنّه قلماً يتناول الطعام.

أزم تايرون ستون الصمت، فمدّت ليدي ميريل يدها نحوه. كلمه، تايرون. قد يقتنع منك. كم أشعر باليأس في مثل

تايرون، واستنتجت أنّ السّفور هو أفضل شيء ننفذه. إنه غاية في الحزن والتعاسة منذ وصوله إلى هنا.

أفهم ذلك.

إنّها تشجّعهُ ثمّ لا تلبث أن تغيظه وتسحقه بقسوة، دون أي مبرر: حتى أنا، أكاد لا أحمل ما تفعله.

وفي رأيك، لماذا تتصرّف هكذا؟

أظن أنّ ذلك يعود إلى رغبتها في إثبات سلطتها. إنّها الطريقة نفسها التي تتبعها مع كل الرجال الذين تتعرّف إليهم.

وهي لا تتوانى عن جعلهم يزحفون عند قدميها. إن لورد داندولاند حزين على تشارلي حزني على دافيد.

كم دعوتها للإقامة هنا؟

ثلاثة أسابيع أخرى! قالت ليدي ميريل. الله وحده يعرف الإساءة التي سوف تتسبّب بها حتى ذلك الحين.

كان أخوها يفهم تماماً هذه الصرخة لأنه يتذكّر ما كاد يحصل عشية الليلة الفائتة.

هي لم تأت من أميركا. بمفردها، سأل تايرون مستفسراً.

لا، بالتأكيد! لقد أرسل أبوها مرافقتها امرأةً مُسنّة، لطيفة جداً، على ما أظن، لكنّها بالتأكيد عديمة التأثير كوصيفة.

وأين هي الآن؟

مرضت ساعة وصولها إلى لندن. وأنا، عندما دعوت نيفادا، ولم أكن أعلم ما هي عليه، دعوت تلك المرأة أيضاً.

ولم تأتِ المرافقة؟

كلا. لقد شرحت لي نيفادا في رسالة بعثت بها أنها سوف

انه يرى التفاصيل تأخذ مكانها، مثلما يحصل في العمليات العسكرية.

كان ذلك عطية من الله.

التفت. كانت شقيقته تُحَدِّقُ به، راجيةً. إبتسم لها، ففهمت انوفا انه وضع يده على الحل مرّة جديدة.

هلاً امرت بإعداد عربة تكون جاهزة في الحادية عشرة والنصف: سوف تذهبان إلى كان، أنتِ ونيقادا.

راحت ليدي ميريل تنظر إليه مندهشةً دون أن تنبس ببنت لسانها، فيما كان يشرح لها بالتفصيل ما ينبغي عليها عمله.

في طريقهما إلى كان في عربة مكشوفة يجرها جوادان منضابهان تماماً، كانت ليدي ميريل تتحدّث الى الفتاة الجالسة الى جانبها بشأن حفلة الرقص التي سوف تشاركان فيها خلال السهرة.

سوف نتناول طعام العشاء في القيلأ، ثم نذهب عند ليدي بيريم، لقد قطعُت وعداً باصطحاب نحو عشرين شخصاً معي؛

واو هذا حزوي كل أصدقائنا، لكانت السهرة ممتعة للغاية.

هذا ما أرجوه تماماً، أجابت نيقادا. واخوك... مستر بيروم، هل يَحِبُّ الرقص يا تُرى؟

تايرون بارع في الرقص وفي كل التمارين الجسدية، أجابت ليدي ميريل. إنه متزلجٌ ماهر، ولاعب بولو بارع، كما أنه

كان في شبابه من خيرة لاعبي الكريكيت.

كم من المواهب في رجل واحد! قالت نيقادا.

هذه اللحظات، وأتمنى من كل قلبي لو أن جورج لا زال على قيد الحياة.

- أتساءل إن كان دافيد استمع الى والده... أو الى أي شخص آخر.

- إذاً، ما العمل؟

كان القلق بادياً في عيني ليدي ميريل وشعر أخوها فجأة بواجب حمايتها.

كانت أخته أكبر منه سنّاً وكان يشعر دائماً بأنه يستطيع الإعتماد عليها. لم يكن بمقدوره رفض مساعدتها، وقد استتجدت به بهذه الطريقة.

نهضت وأتجه نحو النافذة. وسرّح نظره في المنظر، دون أن يرى شيئاً.

راح يُفكّر، ويحسب، ويُعدّ خطة بمَلَكَة تركيز جعلت منه أحد الدّ الخصوم الذين واجهوا أعداء بريطانيا العظمى. وكان

مساعدوه يعرفون ذلك تماماً.

كان ذلك بالنسبة الى تايرون تمريناً للإرادة والقدرة. وكان الأمر نوعاً ما غوصاً في ذاته ليجد العون متى احتاج الى ذلك.

لم يكن في وسعه بالتحديد وصف السياق الذي ينطلق في ذاته عندما يُخَيَّلُ إليه عدم وجود أي حل لقضية ما أو عندما يجد نفسه في حالة تقوده الى الإخفاق.

وفي تلك الحالة، كان شيء ما في داخله يطلب النجدة وكانت النجدة تأتي بشكل قد يعتبره الآخرون عجائبياً. على كل حال،

كان يعرف بالتالي ما ينبغي عليه أن يفعل حقاً، تماماً كما لو

لم تكن أمك تتكلم هكذا. كانت ترغب في أن تُتَزَوَّج وتُزَوِّج أولاداً. أنا أكيدة من أن عدم إنجابها لطفل آخر شكّل كارثة، تماماً كما حصل معي.

ربما تأكلها الضجر بعد ولادتي.

ما تقولينه ليس صحيحاً، وأنا موقنة من ذلك، صرخت ليدى ميريل. لم تسنح لي فرصة مناقشة هذا الموضوع مع أبوي، ولكني على يقين من أن أمك كانت ستكون في غاية السعادة لو قُبِّض لها إنجاب شقيقة لك أو شقيق.

كان يرغب أبي في ابن، على ما اعتقد. لم يكن يهتم، بوجه خاص، بولادة فتاة له.

هذا مستحيل، قالت ليدى ميريل يهدوء. نيقادا، دعيني أسديك نصيحة صغيرة: إذا شئت الحب، فعليك أن تهبي نفسك.

لكنني لا أريد الحب، قالت نيقادا بحزم. إنه آخر شيء قد أحتاج إليه. أنا مسرورة كما أنا، إلا أن أحداً لا يُريد فهم ذلك.

أنا الهو! فلماذا أهتم بالرجال إذا كان يروقه أن يكونوا مثاراً السخرية بسببي؟ إنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم، اليس كذلك؟

هل هم حقاً قادرون على ذلك، سألت ليدى ميريل. إنه سؤال أم حريصة. هل يمكن لشباب مفتون بفتاة مثلك، بوحشية وواج، أن يفهم أن لا فائدة منه في نظرك سوى أنه مرافق ممكن لحفلات الرقص؟

سابق أن قلت لك، ليدى ميريل، إن الرجال يتعلمون

ولم تستطيع ليدى ميريل أن تتبين ما إذا كان قولها هذا مديحاً أم انتقاداً.

- لطالما كنتُ فخورة بتايرون، أضافت. ولأنه فاتن وغني، فإن المعجبات كثيرات، بالتأكيد، بالرغم من أنه ليس من أنصار النساء.

- ولماذا لم يتزوّج أبداً؟
- لطالما طرحْتُ السؤال على نفسي، أجابت ليدى ميريل. إنه متطلب جداً. أعرف جيداً نساء جميلات كان يُسعدهنّ الزواج منه بيد أنه لم يتكبّد عناء وضع خاتم الزواج في إصبعهنّ.

- ربما ينتظر الحب الكبير؟
هذه المرة كانت نبرة السخرية ظاهرة تماماً.

- أوليس هذا ما نتوق إليه جميعاً؟
- لن أصل إلى هذا الحدّ، أجابت نيقادا بسرعة. فأنا أجد أن الحب هو ضعف يسبّب لي الغثيان.

- يا عزيزتي الصغيرة، لا يمكن أن تُفكّري في ذلك بصدق. بلي! أجابت نيقادا بنبرة تحدّ. وبالتأكيد، لن يصدّق أحد ما أقوله حتى أصير حقاً عانساً، أكّس نفسي لأعمال الإحسان في سنوات عمري الأخيرة.

- أنت تمزحين!
- البتّة، قالت نيقادا. لا أستطيع تصوّر نفسي في الحالة التي يصل إليها الرجال ساعة يبوحون لي بحبهم، مرتجفين، دامعي العيون من السُّقم، محاولين وضع أيديهم المحمومة عليّ إن هذا الأمر ليُمرضني.

سألت ليدى ميريل: هل أنت متزوجة؟

سألت ليدى ميريل: هل أنت متزوجة؟

سألت ليدى ميريل: هل أنت متزوجة؟

سألت ليدى ميريل: هل أنت متزوجة؟

وبينما كانت الجياد تتوقف بالقرب من العبارة، قالت ليدي

ليس الوقت ظهراً تماماً. نيفادا، أريد أن أصل لحظة الى
فندق كارلتون لزيارة صديقة مريضة هي ليدي وستبورن. لن
الوقت ان اعود. هلاً أعلمت أخي بانني سأوافيكما وقت الغداء؟
سوف أخبره بذلك، ليدي ميريل.

كان الخادم قد نزل عن مقعده ليفتح باب العربة المكشوفة.
فارتدت نيفادا ودلفت إلى العبارة. كان تايرون ستروم ينتظرها
على الجسر. لن تنسى نيفادا قهيقها حينت راه ليقف
ولي حين كانت العربة تبتعد، صعدت الى متن اليخت وهي
أخذ يدها، قائلة:

رجعتني أختك أن أخبرك بأنها ذهبت لزيارة دوقه
وستبورن وأنها سوف تعود وقت الغداء.

يا لرهافة حسنها! أجااب تايرون ستروم بصوته الخفيض.
هذا يعني انني سأتمتع بإرشادك الى تفاصيل مركبي، أنت
وهدك فقط.

سوف يكون ذلك رائعاً، أجااب نيفادا مبتسمة.

كانت تدرك كم هي ساحرة في ثوب الموسلين الأبيض المزيّن
بشرايط من اللون الأزرق الفيروزي تنسل في ثقوب مطرزة حسب
الطريقة الإنكليزية.

كانت قبعته العريضة الطرف مزينة بشرايط مماثلة لشرايط
الذهب وبباقة من زهر أذن الفار. كانت أشبه بنموذج حقيقي

الدفاع عن أنفسهم! إنهم كبار وأقوياء بما يكفي للتوصل إلى
ذلك.

كانت نيفادا تتكلم بان دفاع. فأجااب ليدي ميريل:
- السوء في الأمر أن الرجال لا ينضجون حقاً أبداً. إنهم
يبقون أطفالاً في قرارة أنفسهم خصوصاً بالنسبة الى أمهاتهم
طبعاً. إنهم بحاجة لأن نسهر عليهم، ونحبهم، لأن نشجعهم
ونلهمهم.

إنفجرت نيفادا ضاحكةً.
- ألهم من أرغب في إلهامه، قالت بصوت لا يخلو من
التبجح. على اني لا انوي السهر على رجل، كما لا أود أن يهتم
أحدهم بي. إن كل الرجال مغفلون. التسلية هدفهم قبل الوقوع
في الغرام. أما فيما بعد، فلا شيء البتة.

لم يكن بمقدور ليدي ميريل سوى الصمت.
كانت الجياد تخبّ بمحاذاة الساحة التي تحفّ بها أشجار
السرو، في اتجاه المرفأ، الواقع في أقصى المدينة.
لم يكن سوى مرفأ صغير، بيد أنه كان يعجّ ببخوت من كل
القياسات. وراحت نيفادا تقفّش بانفعال عن «مولاي»، يخت
تايرون ستروم.

وبدلاً من أن يكون أبيض اللون تماماً شأن بقية اليخوت
التي يملكها فرنسيون، إنكليز أو إيطاليون، فقد كانت
لـ«مولاي» مقدّمة مطلية بالأسود والذهبي. وكان خطّ أسود
قامم يعلو خطّ الغاطس. ثم إن المركب كان أكثر طولاً ودقّة
وأناقة من المراكب المجاورة.

- في مناطق مختلفة من العالم.
 - هل أفهم من ذلك أنك لا تريد إعطائي المزيد من التفاصيل؟
 - ولماذا يهمك أن تعرفي ذلك؟
 - ضحكت بطلاقة.
 - تعاملني كما لو كنت جاسوسة. هل تعتقد أنني أعمل لصالح الروس؟
 - أعتقد أنك خطيرة بما يكفي لعدم الإقتراب منك دون حذر، أجب تايرون ستروم.
 - هل اعتبر هذا إطلاءاً؟
 - إذا راقك أخذه على هذا النحو، فأنت حرة في ذلك.
 - كان ما يجري مبارزة بالكلمات وكان يعرف أنها تحب هذا النوع من الحديث.
 - أنا أظن أنك تحب نفسك بالأسرار عبثاً، سيد ستروم؛ أنا أهدر من هالة الفروسية التي اكتسبتها.
 - تحذرين؟
 - نعم، وقد يبدو لك ذلك مثيراً للإهتمام. هل تراك تلتذذ بموقع أبي الهول الذي تتخذه؟
 - لم يُقبض لي بعد الكثير من الوقت للتفكير في وضعي الطبيعي، أجب تايرون ستروم. أما الآن وقد أثرت الأمر، فأني أشعر مع ذلك بأن تلك الخاصّة هي بالأحرى ميزة سالحة.

للفتاة طالما لم تغرق في أعماق عينيها الخضراوين المتحرّكتين ولم نلاحظ السحر الفتان لشفتيها المكورتين.
 تقدّمت تايرون ستروم الى الصالون حيث أدهشها الديكور على متن هذا اليخت الفاخر.
 كان كل شيء فيه صارماً، ذكورياً ومركّزاً على العمل. لا شيء غير ضروري. لا وسائد ناعمة ولا لوحات معلقة على الحيطان كما في كل اليخوت التي سبق لها وزارتها.
 - قد نبداً بفنجان من القهوة، قال تايرون ستروم من خلفها. هل تحبين القهوة التركية؟ لقد عشقتُ زمناً طويلاً في الشرق حتى صرت أفضلها على القهوة الفرنسية.
 - أنا أيضاً، أجايت نيفادا.
 ظهر رئيس الخدم في تلك اللحظة. تحدّث إليه تايرون ستروم بلغة غريبة لم تفهمها. ولما راقبت الرجل، حسبت أنه قد يكون صينياً.
 عندما صارا بمفردهما من جديد، سألته:
 - لماذا لا تُشغّل خدماً من الإنكليز؟
 - إن كل أفراد طاقمي من الصينيين أو المالئين، قال تايرون ستروم. إنهم بحارة ممتازون وهم يتكيفون مع كل الظروف تقريباً.
 وأضاف بابتسامة خفيفة:
 - إننا لا نرسو دائماً في مرافئ مريحة كمرافئ جنوبي فرنسا.
 - أين كان يخطك قبل رسوّه هنا؟

- لكن هذا لن يمنعي من محاولة إنزالك من عليائك وجعلك
تخبرني الكثير الكثير عنك.
- إنه مدعاة لغروري أن أرى نفسي مدار اهتمامك في حين
يكثر المعجبون بك.
- هل بإمكانني القول إن المكان متوفر دائماً للمعجبين
الجدد؟
لم يتسع له الوقت للإجابة، فقد عاد الخادم الى الصالون
يحمل في يده طبقاً عليه فنجانان من البورسلين مركزان في
قاعدة من الذهب المشغول والمرصع بالفيروز.
- آواه، كم هذا جميل! صرخت نيفادا.
- إنه هدية قُدمت إليّ في الشرق، قال تايرون ستروم.
أفرغ الخادم القهوة الكثيفة والمحلاة في الفنجانين وما لبثت
نيفادا أن نهضت لتتأمل الفيروز وعمل الترصيع.
- إنها حقاً غاية في الجمال، قالت.
- لو كنت في الشرق، لوجب عليّ لياقةً أن أجيبك: «إنها
لك!»، قال تايرون ستروم. لكن الواقع هو أنني إناني بما يكفي
للإحتفاظ بها لنفسني.
- يا للكرم! قالت.
- لو كانت ملكك، ماذا كنتِ فعلتِ بها؟ سألها.
- كنت أرشف فيها القهوة، بالتأكيد، قالت نيفادا. وهذه
القهوة لذيدة.
- لَقَتُ رئيس الطهاة أن يصنعها تماماً كالأتراك: سوداء
كالشيطان، ساخنة كجهنم وعذبة كالحب.

هل تظنّ أن الحبّ عذب؟ سألت نيفادا.
- هذا مرتبط بالشخص الذي نُحبّ، أجاب تايرون ستروم.
- إنك تتكلم مثل شقيقتك. حدّثتني عن الحب، فقلت لها إنه
أمر إن يُخالجني أبداً وانفعال أمقته واحتقره.
- من النادر أن نعثر على رأي حاسم كهذا عند شخص
يعالج عمرك.
- إن تلبث أن تقول إنني أصغر من أن تكون لي آراء
خاصة! قالت نيفادا.
- اتجنّب تماماً أن أقول تقاهة كهذه، هي أيضاً خطأ ذريع.
- إذاً، إنك تسلم بأن تكون لي آرائي الخاصة؟
- بالتأكيد، أجاب تايرون ستروم. إنك إنسانة واقعية جداً.
ويدهم المترددون والمكبوتون في هذا العالم يخافون من أفكارهم
الخاصة.
- إنك تُظهر لي غاية اللطف، مستر ستروم، بحيث أتساءل
هل أترك تخفي فكرة ما، قالت نيفادا.
- لا أهم ما الذي يدعوك الى قول هذا؟
- سبب لها فنجاناً آخر من القهوة الطوة وهو يتكلم. ولاحظت
أنه لم يلمس فنجانها، ففكرت أنه ربما لا يحبّ المشروبات
الساخنة العذوبة بالرغم من ادعاءاته.
- لأن ذلك يهمها. فقد كانت ببساطة تُجهد نفسها لدفعه
على الكلام بغية معرفة رأيه فيها.
- كم مرّة وقعت في الغرام؟ سألته بلهجة تحدّ.

سوف يكون النهار حاراً اليوم، قال تايرون ستروم. سوف

الفتح نافذة أخرى. فلاحظ أن نيفادا ترفع يديها الى جبينها

وقد الملتقت عينيهما. ثم قامت بجهد لتفتحهما وتقول: أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من

لو أجبك: «أبدأ». لما صدقتني، ولو قلت لك: «غالباً»،

لازاد فضولك. إنك واثق تماماً من نفسك.

ولمّ لا؟ كلنا يعرف شخصيته، وقدراته وخصوصاً

طموحاته. نظرت إليه بدهشة.

هل تعتبرني طموحة؟ كلنا طموح، بشكل أو بآخر.

وتموّجت رموشها قليلاً عندما قالت: يبدو لي أنك لا تتكلم عن طموحات الناس المألوفة: الرغبة

في الأموال، والألقاب أو النجاح. تُظهرين نباهةً، قال تايرون ستروم. إنّ في جمجمتك عقلاً،

ولم الحظ هذا حتى الآن. أعتبر ما قلته إهانة تقريباً، سألت بتعجب.

إعتقدت أنك سوف تعتبرينه مديحاً! ليس بالطريقة التي قلته بها.

في هذه الحال، أرجوكِ المعذرة. خُيل إليّ أنك من صنف

النساء، اللّاتي تفضّلن أن يكون الذكاء معيار الإعجاب بهنّ لا

الجمال. أنا... تنهّدت وقالت بصوت متهدّج: الجوّ حار هنا، اليس كذلك؟

كانت المحركات ترتجف تحت قدميها وبدا لها أن صوتها
دون ملل السؤال نفسه:

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟
لماذا خدّرها تايرون ستروم والى أين تُراه يأخذها؟
كان عليها إيجاد الجواب. والحق يُقال إنها هي التي كانت
الأسئلة لا المحركات

أومّأت نحو باب الغرفة، متوقّعة أن تجده مغلقاً.
ادارت القبضة ففتّح الباب. تردّدت في الولوج الى الممشى.
كانت قبل لحظات قد ألقت نظرة خاطفة على المرأة وهي تمرّ
أمامها. رجعت إليها لتتفحص نفسها بمزيد من الإنتباه.
لاحظت أن ثوبها مدعوك وأن شعرها مشعث.
ربّما تقلّبت وهي فاقدة وعيها.

كانت تشعر أيضاً بالحرارة، كما لو أنها حُجزت لفترة
أدوية. كم مضى عليها غارقة في هذا الرقاد الإصطناعي؟
على كل حال، كانت تشعر بالعطش، بعطش كبير.
وإن نظرت حولها، وقع نظرها على باب آخر في غرفتها.
حمام!

كانت تعرف أن ذلك ترف غير اعتيادي على متن يخت خاص.
غرفة الحمام تُشكّل عادة جزءاً من المقصورة، التي يخصّصها
المركب لنفسه، في حين يكتفي المدعوون بغرفة حمام
مشاركة.

وجدت فوق كرسي الحمام صنبورين كُتب على أحدهما «مياه

جلست، فرات حينها كوة المركب، فأدركت فجأة أنها ليست
في قطار بل في يخت.

أخيراً، عاد تايرون ستروم الى ذاكرتها. رأت وجهه بدقة
متناهية، تعبير عينيه وابتسامة الهزء على شفتيه.

كانت على وشك توجيه اللوم إليه: تريد اتهامه بشيء ما،
وتذكّرت فجأة:

القهوة!

«ما من شك في أن مخدراً دُسّ فيها.

وضعت نيقادا رجلها على الأرض. نهضت بعناء لتتّجه نحو
الكوة.

وبالرغم من فقدانها التوازن وانزعاجها، وصلت أمام الكوة،
فما شاهدت سوى البحر، لا شيء غير البحر يمتدّ حتى الأفق
حيث يلامس السماء.

ماذا حدث؟ أين هي الآن؟

خُيّل إليها لفترة أنها تحلم. ثم، إذ التفتت، شاهدت
كدسة اغراضها، حقيقةً وواقعاً بين اثاث الغرفة.

كان ثمة طاولة للتزيّن فيها جوارير عدّة، وخزانة للثياب،
وجوارير أخرى منصّبة بحيث يشكّل سطحها طاولةً.

كان الفراش الذي نامت عليه أكثر وسعاً من المعتاد، لكنّ
رغم ذلك، لم يكن يُشبه ذاك الذي وُضع في تصرفها على متن
عابرة المحيط التي أقلّتها من أوروبا.

كل شيء في الغرفة كان بسيطاً ومميّزاً. وتذكّرت عندئذٍ أن
الصالون أيضاً كان كذلك.

مالحة»، وعلى الثاني «مياه للشرب». وإن وقعت على قدح، ملأت نيفادا وشربت منه بشراهة.

ولما انتهت من الشرب، عرفت ما يعنيه الأميركيون بلفظة «مغطس». فقد كانت متأكدة من أن عليها الإكتفاء بماء البحر. ولكن لا. كان في غرفة الحمام دوش (*) أيضاً.

تأملته لحظة ثم أتخذت قرارها. توجهت الى الباب فأغلقت ثم خلعت ثيابها.

بعد الإستحمام، تراجعت حدة صداعها بشكل كبير. فتحت أقرب الحائبات إليها فعثرت في داخلها على ثوب مكوي بدقة ومطوي بعناية بين ورقتين حريريتين.

كان هذا عمل الوصيفة الفرنسية. ولكن، من أرسل بأغراضها الى كان، وما هي التفسيرات التي أعطيت لسكان القيلأ تبريراً لرحيلها المفاجيء؟

قررت نيفادا حل هذه المعضلة. ولذلك، ارتدت ثيابها وسرحت شعرها بالفرشاة ذات القبضة الذهبية الموضوعة في حافظات أدوات الزينة، المصنوعة من جلد التمساح. كانت عيناها الخضراوان تشعان ببريق مقاتل عندما تأملت نفسها في المرآة بيد أنها شعرت بنفسها عصبية بعض الشيء حين فتحت باب غرفتها لتبحث عن تايرون ستروم. لكنها لم تكن أبداً لتفكر بهذا الشعور.

لم تفهم نيفادا تصرف تايرون ستروم هذا وقررت أن من

(*) رشاشة مياه (م).

واجبه إعطاءها بعض التفسيرات المنطقية مشفوعة بالإعتذار. عبرت الممشى حتى بلغت الصالون.

فكرت في أن تايرون ستروم قد يكون موجوداً على الجسر، لكنها وجدته في الصالون، يكتب خلف مكتبه.

رفع رأسه عند دخولها، دون أن تبدو عليه أية دهشة، بل رسالة لم تعدها فيه من قبل.

تقدمت. وبالرغم من معرفتها بفتنتها، لم تر في عينيه الإعجاب الذي اعتادت رؤيته في عيون الرجال بأسرهم.

ها قد استيقظت!

نعم استيقظت، أجابت نيفادا، وأريد أن اعرف لماذا انا هنا ولماذا خدرتني؟

للتحاشي النقاش، أجاب بهدوء. بشأن ماذا؟

ربما لم تكوني ترغيبين في مغادرة كان كما اشتهي.

الى أين تأخذني؟ إنه لعمري تصرف غير اعتيادي.

للأوضاع غير الإعتيادية علاجات غير إعتيادية، أجاب تايرون ستروم.

كانا واقفين معاً، إلا أن المركب إهتز بشدة فجلست نيفادا على مقعد عالي الظهر، الى جانب المكتب.

ولاحظ تايرون ستروم أنها تتمالك نفسها بصعوبة بيد أن الغضب في عينيها لم يخف عليه.

مستر ستروم، قالت بنبرة باردة. قل لي بالأحرى ما هي ادراكك قبل أن أمرك بالعودة ببخحك وإعادتي الى كان.

جلس تايرون ستروم خلف مكتبه واستقرَ بارتياح في مقعده.
- أنا أصطحبك الى أفريقيا، قال لها. فكَرْتُ أَنْ الرحلة قد تكون مهمةً لتربيتك.

- الى أفريقيا! صرخت نيفادا، مذهولةً.
كان قد حُيِّلَ إليها بشكل غير واضح أَنهما ربّما يبهران نحو مالطا أو جزر البليار.

- إنه لأمر سخيف! قالت بغیظ. تعرف تماماً أنك لا تستطيع إصطحابي هكذا دون أن تشرح لشقيقتك سبب رحيلي ومع مَنْ أنا موجودة.

- إسمحي لي أن أكون صادقاً معك، قال تايرون ستروم. لقد سُرْتُ شقيقتي بالتخلُّص منك.

- هل تعني أن ليدي ميريل... مشاركة... في عملية الخطف هذه؟

- إذا أردتِ التعبير عمّا حصل بهذه الطريقة، فالجواب نعم.

- لم أسمع في حياتي قط كلمات مزعجة كهذه! لقد كنتُ اعتقد أن بإمكانني الوثوق بها لتعاملني بلياقة، فهي كانت صديقة لوالدتي. ماذا سيكون موقف والدي عندما يعلم بذلك؟
- أواه! على الأرجح، سوف لن يعرف شيئاً قبل شهر، أو شهرين، أكد تايرون ستروم. أما فيما يتعلّق بأختي، فافهمي في النهاية أن الأمّ مستعدةٌ للدفاع عن ابنتها كما تُدافع النمرة عن صغارها.

- إذاً، فإن قلقك على دافيد هو في أساس عدم اللياقة هذه؟

- تماماً، أجب تايرون ستروم. قلقي العظيم على دافيد.
- وهل تعتقد أنه سوف يسمح باختفائي بهذه الطريقة،

دون أن يسأل عمّا جرى لي؟
- في السّاعة الراهنة، يتّجه دافيد أيضاً نحو أفريقيا، غير أن طريقيكما لن يلتقيا.

- لقد أرغمته على الرحيل بالرغم من أنه قرّر البقاء معي؟
- بل تطوّع للرحيل بعد أن قرأ رسالتك.
- أية رسالة؟

- الرسالة التي أرسلتها إليه؛ وهي بمنتهى الظرافة. لقد أرحمت له فيها أنك بُعيد مغادرته الفيلاً للعب التنس عند صديقه، تلقّيت رسالة من أبك فاضطرت للعودة الى أميركا في الحال.

كانت نيفادا تنتظر الى تايرون ستروم جاحظة العينين، فيما أضاف:

- قلت له أيضاً إنك ستكونين أبداً شاكراً له صداقته، لكنّ قلبك سوف يبقى في البلد الذي أبصرت فيه النور وحيث أرابين في العيش.

سكت، ونظراته مركّزة على وجه نيفادا. ثم أضاف:

- ... كانت رسالة ولا أظرف، من تلك التي يعتبرها الشاب بمثابة كنز ولا تتركه تعيساً أو فاقداً للامل الى حد التفكير في الإنتحار.

- تجرأت على كتابة رسالة كهذه وتذييلها بتوقيعي؟
كانت نيفادا تنفث كلماتها تقريباً.

ماذا أيضاً؟
 - لقد قرّرت أنك في حاجة الى درس. يجب أن تتعلّمي عدم
 اذية الرجال كما فعلتِ بابتن أخي. لقد نجا دافيد منك، ولكن
 لا يحظى آخرون بهذه الفرصة.
 - أنت في غاية السخف! والتفاهة! إن الرجال قادرون تماماً
 على الدفاع عن أنفسهم بمفردهم. وإلا، فليس من حقهم
 الإساءة بأنهم رجال.

- صحيح متى كان الأمر يتعلّق بإمرأة طبيعيّة. لكنك، يا
 ابغدادا لست إمرأة طبيعية. أنت ظالمة، قاسية القلب، وقد أقول
 إنك شيطانة!
 وفكرت نيقادا من مكانها.

- ما الذي يسمح لك بالتلفّظ بهذه الكلمات! هل تعرف انك
 ابغدادا وانك تتصرّف كمجرم. سوف تذهب الى السجن، مستر
 ستروم، لأنك تصرّفت بهذه الطريقة.

- لقد فكرت في مثل هذه المخاطرة، أجاب تايرون ستروم.
 ولكن، أين لك في الوقت الحاضر أن تعثري على شرطي فرنسي،
 إنكليزي أو أميركي؟ لقد أليت على نفسي عدم إشراك أيّ منهم
 في عديد طاقمي.

كانت منتصبية أمامه، تنظر إليه. وكان يعرف أنّها تتساءل
 ما عليها عمله، فلا يقرّ قرارها على شيء.
 بعد لحظة طويلة، اجتازت الصالون لتلقي نظرة من النافذة.
 - أين نحن؟ وكم من الوقت فقدت وعيني؟
 - نحن على بعد ثلاثين ميلاً من جبل طارق، ونُبجر في

- إن خطك سهل التقليد. فليس فيه ميزة خاصة.
 - إذا، ارتكبت تزييف رسالة بالإضافة الى جرائمك الأخرى؟
 - وهي موهبة تبيّن لي أنها مفيدة للغاية في مختلف فترات
 حياتي.

- كيف تجرّأت على التصرّف معي بهذه الطريقة!
 - أنت أجبرتني على هذا.
 - هل تأخذ حقاً تهديدات دافيد السخيفة على محمل الجد؟
 - انا لا أصدّقها فحسب، بل اعلمي أنّني منعتة في آخر

لحظة من تنفيذها، أجاب تايرون بصوت قاسي.
 - انا لا أصدّقك. إن الرجال الذين يُهدّدون بالانتحار إنّما
 يتظاهرون بذلك.

- إن خبرتك بالرجال لا تفوق خبرتي بهم.
 كان ما قاله حقيقة لا يُمكن دحضها، فأجابت نيقادا التي
 كان غضبها يتنامى:

- هذا لا يبرّر كونك أحضرتني الى هنا، وخدّرتني بقهوتك
 اللعينة وكونك كتبت أيضاً رسالةً باسمي. انا أصرّ على أن تعود
 بيختك وتُرجعني الى فرنسا.
 وقرأت في عينيه رفضاً قاطعاً، فسلمت قائلةً:

- ... إذا كنت تخاف هذا القدر على ابن أختك العزيز،
 فأنزّلني في مرسيليا. لقد ضقتُ ذرعاً بك وبعائلتك. وأفضّل أن
 أعود الى إنكلترا.
 - كان هذا الأمر ممكناً، بالفعل، قال تايرون ستروم، ولكنّ
 ثمة شيئاً آخر.

محاذاة الجهة الأطلسية من المغرب. وقد فقدت وعيك ثمان وأربعين ساعة.

- كل هذه المدة؟

- إن المخدر الذي أعطيتك إياه فعال للغاية. وقد علمت أنه يفعل فعله بشكل فوري تقريباً.

كان في أجوبة تايرون الباردة وصوته الخالي تقريباً من أي تعبير شيء مثير للربح.

وارتمت نيفادا بنزق على الأريكة.

- إذاً، لم أذُق الطعام منذ ثمان وأربعين ساعة. فأنا بالطبع شديدة الجوع.

- إنه أمر واضح. ولكن، ثمة شيء آخر أشرحه لك.

- وما هو؟

- أنا لا أصطحبك في هذه الرحلة لإنقاذ ابن أختي فحسب، وكذلك داندولاند الشاب؛ بل أيضاً لأرى إذا كان من الممكن تحويل ساحرة إلى إمارة.

- أنا... لا أفهم قصدك.

- أشعر بأنك تفهمين قصدي. فحتى الآن، أمضيت الحياة تعطين الأوامر للناس فينفذونها لأنك تدفعين لهم ثمن ذلك. ما أودُّ اكتشافه هو هل أنك تملكين شيئاً تقدّمينه لكائن من كان، لرجل أو امرأة، عدا مالك. خيّل لنيفادا أنها سمعت هذه الكلمات من قبل. وتذكّرت فجأة أنها توجّهت بها إلى دافيد، في الحديقة، عشية وصول تايرون ستروم.

لقد تنصّت إليّ! قالت متهمّة. كان عليّ أن أشك في الأمر. كنت في غرفتك، وأنا ودافيد في الحديقة، تحكّك مباشرة.

- بالفعل، لقد سمعت كل شيء، اعترف تايرون ستروم. لم أسمع في حياتي امرأةً مقيتةً وعديمة الإحساس مثلك، مهما يكن عمرها، تتحدّث إلى رجل خطيئته الوحيدة أنه كان من الجنون بحيث أحبّها.

كان صوته يجرح كالسوط، ونيقادا تحدّق به مذهولة.

- أفهم الآن غضبك، قالت، ولكن، ألا تجده في غير محلّه؟ إنا، على كلّ حال، لم أطلب من دافيد أن يُغرم بي، ولا من شارلز أيضاً.

- لا، ولكنك لم تعجلي سوى التأكّد من وقوعهما في غرامك. أرى ذلك، كنتِ مستعدّة لتجربة أساليبك عليّ.

أغرق في الضحك ثم أضاف:

- لسوء الحظ، فيما يتعلّق بي، إنك افتقرت إلى النباهة. ذلك أنّ أداك كان رديئاً، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار تجربتك المحدودة.

كان الإحتقار الذي يُرهبها به أكثر إهانةً من الغضب.

- أريد أن أكل شيئاً، قالت مقطّبة الوجه. هل لديك أي شيء؟ أمر سهل، فالطعام متوفّر على متن المركب. ولكن، إن أردت تناول الطعام، فما عليك سوى تدبير نفسك بنفسك. أظن أنك تعرفين أين المطبخ؟

نظرت إليه بحذر.

- لماذا... لا يُحضّر أحد الخدم الطعام لي.

- لأنني أظن أنه من الأفضل لك أن تهتمي بحياتك اليومية؛ للمرة الأولى في حياتك؛ إكتشفي ان المال لا يمكنه ان يشتري لك كل شيء. هذا امر سخيف!

- إنه رأيك، بدون شك، ولكن دعيني الفت نظرك الى أنني صاحب اليخت، أتصرف فيه كما يحلو لي. إذا كنتِ جائعة، فأعدّي لنفسك الطعام أو إستغني عنه. أه! ثمة شيء آخر: لن يكون أحد في خدمتك في الغرفة.

- كيف تجرؤ على معاملتي هكذا؟

- ليس الأمر بهذه الصعوبة، أجايب تايرون ستروم. ربما علمك هذا الأ تسافري عبر العالم دون الحماية اللازمة. انا لا احب النساء المجونات الى حد يتصورن معه أن بإمكانهن الإستغناء عن وصيفة ترافقهن.

- على كل حال، انا لا أتمنى بالتأكيد أن تكون أنت من يتولّى حمايتي، أجايب نيقادا بعنف.

ولم تأتِ على نهاية جملتها حتى فهمت خطأها. فالواقع أن الابتسامة التي ارتسمت على وجه تايرون ستروم كانت ابتسامة الرجل الذي يعاند طفلاً مشاكساً أو حيواناً شמושاً.

- أين ذلك المطبخ؟ سألت.

- في الخلف، كالعادة. لن يلبث موعد الغداء ان يحين، سوف تجدين رئيس الطهاة هناك. إنه صيني. وبالتالي، لن تستطيعي التحدّث إليه.

وإذ شعرت بأن المزيد من الجدل لن ينفعها في شيء، خرجت نيقادا من الصالون وأغلقت الباب خلفها بعنف. عثرت نيقادا على المطبخ دونما صعوبة في مؤخرّة المركب. وقد كان هذا اليخت بحق حديثاً للغاية، وأفضل تجهيزاً من كل اليخوت التي سبق لها أن رأتها. كان أحد الشباب يُعاون رئيس الطهاة. وكان الإثنين يلبسان ألباباً ناصعة البياض، ويحضّران طعام الغداء. فأحسّت نيقادا من رائحة الطعام اللذيذة كم كان شعورها بالجوع كبيراً. ولما كان التحدّث الى رئيس الطهاة مستحيلاً، فقد راحت لهمه مُرامها بالإشارة. وهكذا، دلّها على مقعد خفيض في الجهة الأخرى من الطاولة التي يستعملها. كان الفرن خلفها؛ وشاهدت نيقادا في داخله قطعة لحم تُشوى. وبالرغم من هدوء البحر، فقد كان الجلوس أفضل لها من البقاء واقفة؛ وهكذا استراحت على المقعد الخفيض، وراحت تراقب رئيس الطهاة وهو يعدّ برشاقة مكملات اللحم: فطر صغير طازج، بانديجان وبزياً صغيرة الحجم. وشاهدت نيقادا الى جانب الفرن طبقاً من الهليون، أحد الخضار المفضّلة في القيلأ، والتي كانت تصل كل يوم طازجة من السوق، بعدما يتمّ انتقاؤها من الأراضي الواقعة وسط منطقة نيس.

نضجت قطعة اللحم؛ فرفعها رئيس الطهاة ووضعها على الطبق، وجعل حولها مكملاتها. في تلك اللحظة، ظهر الخادم كما لو أن أحداً دق له الجرس.

كان هو أيضاً يلبس سترةً ناصعة البياض، ولكن ذهبية الأزرار.

كان يحمل طبقاً يعلوه بعناية غطاء صغير، وعلى الغطاء الناعم، تلمع ملعقة وشوكة وسكين من الفضة. جعل الطَّبَق على الطاولة. فوضع عليه مساعد رئيس الطباخين صحن الهليون والسلطة المعدّة ووعائين للصلصة. ثمّ غطّى رئيس الطباخين قطعة اللحم بغطاء من الفضة ووضعها على السخّانة فوق الطبق.

أخيراً، وسط دھول نيقادا، استدار الخادم وخرج من المطبخ حاملاً الطَّبَق.

عندها فقط فهمت أن الطعام مخصّص لتايرون ستروم. فالواقع أن وجبة واحدة كانت عليه. وأنا! صرختُ في وجه رئيس الطهاة وهي تدلّ بإصبعها على شخصها.

وجواباً على سؤالها، أخرج قطعة أخرى من اللحم، قطعة نيئة، ووضعها أمامها. دفع نحوها ما تبقى من الفطر، والبزبيل الصغيرة والباذنجان، والكلّ غير متبلّ. بعد ذلك، خرج مع مساعده من المطبخ.

مكثت نيقادا برهةً قبل أن تعي الأمر تماماً. وفهمت أخيراً أنهما ينفذان الأوامر ليس إلّا. فقد قال لها تايرون ستروم أن تخدم نفسها بنفسها.

جمعت قبضتها ورغبت لشدة غيظها في أن تدوس قطعة اللحم برجليها.

ثم قال لها صوت واخز من داخلها إنها تعاني جوعاً فظيماً وإن الغضب لن يُفزي بها إلى شيء.

ذهضت ببطء وانتقلت إلى الجهة الأخرى من الطاولة. تناولت قطعة اللحم بلطف بين السبّابة والإبهام وألقتها على المشواة.

اقبل تايرون ستروم من سطح المركب حيث ناقش مع القبطان مدى التقدّم الذي تحقّق خلال النهار.

كان هذا اليخت يستحقّ تماماً شهرته كأسرع مركب من بلرازه.

فقد صنعه وفقاً لمواصفاته الخاصة لسبب في غاية البساطة: لأن ينبغي عليه أحياناً الخروج من وضع موشك على الانفجار وبالرّاحة من الأمان؛ فكان عليه حينئذٍ تنفيذ ذلك في أسرع وقت ممكن. ولم يخذله «مولاي» أبداً في مواجهة الخطر.

كان الطاقم هو نفسه منذ وقت طويل وتايرون ستروم على علم بأن أفرادَه ينفذون أوامره دون نقاش وبتفانٍ يجده هو نفسه مدعاة للعجب.

ولمّا أتجه بمحاذاة الجرسوب الصالون، لم يكن بوسع تايرون ستروم غير التساؤل عما إذا كانت نيقادا قد أحبت طعامها، وهو بدون شك أول طعام أعدته بنفسها. لقد فكّر تايرون ستروم، وعلى وجهه تعبير حازم، في أن الطريقة الفضلى للعلم الطبخ هي الجوع.

تساءل أيضاً كيف ستتدبّر نيقادا أمرها في غرفتها، من دون وصيفة.

إذ، بصفتها ابنة مليونير، فإنها لم تفعل أكثر من التقاط ورقة عن الأرض.

كانت من ذلك النوع من الطفيليات الذي يمقته كثيراً. فالذين جمعوا ثروتهم تعبوا كثيراً في جمعها، على الأقل. وفي المقابل، لم تكن زوجاتهم المدللات والمغنجات اللاتي تظنن ان بإمكانهن شراء كل شيء بمالهن، تُثرن فيه غير القرف.

على الأرجح، سوف تجد نيفادا على متن «مولاي» حياة تختلف تماماً عن تلك التي عاشتها حتى الآن تحت كنف والدها، إن في الجادة الخامسة أو في ممتلكاته الشاسعة المنتشرة في أميركا.

عندما عاد تايرون ستروم الى الصالون، كان ينوي استئناف عمله خلف مكتبه. ولكن، ما إن جلس وبدأ بتصفّح بعض الأوراق، حتى فُتح الباب ودخلت نيفادا.

كانت ترتدي الثوب الأبيض نفسه الذي كانت تلبسه من قبل، ولكن عينيهما كانتا تشعان ببريق لم يكن فيهما قبل الآن، فشعر تايرون ستروم بأنها تحيك حماقة ما.

– ماذا في الأمر؟ سألها ببرودة، أنا مشغول.

– اعتقد انك سوف تجد الوقت للتحدّث إليّ، أجابت.

لم يكن قد تكبّد عناء الوقوف ساعة دخولها، فقال بنفاد صبر:

– نيفادا، الواقع أنني مشغول جداً ولا وقت عندي أضيّعه في مناقشات عقيمة. لماذا لا ترغيبين في الاستفادة من وضع شائك. مارسي الرياضة.

– أنا رياضية بما يكفي لأكون راميةً بارعة! أجابت نيفادا وهي تسحب من خلف ثنورة رداؤها الفضفاضة مسدساً سدّته الى تايرون ستروم

لم يتحرّك، بل اكتفى بالنظر إليها في انتظار تفسير ما.

– إدع قبطانك، قالت نيفادا، واعطه أمراً بإنزالي في أقرب

– وإن رفضت.

– سوف تجد نفسك في وضع حرج.

كان في صوتها رنة انتصار عندما أكملت: لن اقتلك! فلا رغبة لي في المثل أمام المحاكم بتهمة

القتل. وكما تعرف، فأنا لا أستطيع إعطاء الأوامر لطاقمك. لهذا سوف أطلق النار على ذراعك، وهو أمر سيؤلك كثيراً، وإذا

أصريت على الرفض، فسوف أطلق النار على ساقك.

– ما تقولينه يدلّ على حذاقة، لاحظ تايرون ستروم.

– هكذا ترى أنني قادرة على الدفاع عن نفسي. وقد تمرّنت على الرماية في مزرعة أبي، في كولورادو، كي أكون واثقة من

الذئبي في مناسبات كهذه.

ولما لزم تايرون ستروم الصمت، أضافت:

– هيا... مستر ستروم... إنك تعرف تماماً أنك خسرت.

إدع قبطانك الى هنا وإلا فأني أعدك بوضع تهديدي موضع التنفيذ.

– لا أريد أن يترك مركزه، أجاب تايرون ستروم. لهذا السبب سوف أخطره بالأمر كتابةً.

وبيده اليسرى، أخذ ورقة وتناول ريشته فغمسها في دواة كبيرة مربعة موضوعة فوق مكتبه.

كانت نيقادا تراقبه والابتساماة تلعو ثغرها. ثم فجأة، وبحركة من اليد نفسها التي تمسك بالريشة، ضرب تايرون الدواة بقوة، فقذفها مباشرة باتجاه الشابة.

وكما تفعل كل امرأة كريمة فعل طبيعية، تراجع غريزيماً لتحول دون تبقي ثوبها بالحبر. وبسرعة فائقة يتحلى بها الرياضي المتمرس، قفز تايرون ستروم فوق مكتبه وأمسك نيقادا بذراعها ثم دفعها إلى الوراء.

أطلقت صرخة غضب عارم. ولكن، قبل أن يخرج الصوت من فمها، وقبل أن تصلي مسدسها، كان قد خطف سلاحها ووضعها في جيبيه.

نظرت إليه، غضبي، وبينهما، على الأرض، بقعة من الحبر. ثم، كما لو أن هذا العمل جردها من كامل سيطرتها على نفسها، ارتمت على تايرون تسبقها أظافرهما، استعداداً لخدشه في وجهه.

أبعدها عنه بيد وصفعها باليد الأخرى. دوت الصفعة كرصاصة مسدس. وأدت لا إلى إفشال هجوم نيقادا وحسب، إنما أيضاً إلى إخماد غضبها. فنظرت إليه مشدوهة، ويدها على خدّها.

- لقد ضربتني!

- نعم، ضربتك، أجب تايرون ستروم. وأنا مستعد لتكرار ذلك، إذا استمررت في التصرف كالبلهاء. واعلمي، يا نيقادا، أن

لا أمل لك بتأتا في ربح معركة معي وجهاً لوجه.

راحت تنظر إليه، كأنها مسمرة، ويدها لا تزال على خدّها. ثم خرجت من الصالون راكضة تاركه خلفها ما يشبه النحيب. أمضت نيقادا ما تبقى من النهار مستلقية على فراشها، تفتش عن طريقة تثار بها من تايرون ستروم.

كانت على ثقة تامة بعملها عندما عثرت على المسدس في مطبخها. فقد ظننت حقاً أنها قادرة على إرغام تايرون ستروم على إيصالها إلى أقرب مرفأ.

كان في حوزتها الكثير من المال بالإضافة إلى جواهرها التي كانت تساوي وحدها ثروة لا يُستهان بها. وأينما كانوا سيؤولونها، فقد كانت متأكدة من العثور على طريق العودة إلى أوروبا وحتى إلى أميركا.

إلا أن تايرون ستروم هزمها.

وهي رغم كرهها له، لم يكن باستطاعتها التغاضي عن فكرة بدأت تولد في داخلها: قلة من الرجال تملك قوته ورشاقته.

- أنا أكرهه! قالت بصوت مرتفع. لن يعاملني هكذا أبداً! أقله ولا أدعه يتغلب عليّ.

كان قول ذلك سهلاً وتحقيقه مستحيلاً من دون سلاح. إن المسدس الصغير الذي كانت تحمله معها دائماً في رحلاتها يمنحها شعوراً بالأمان، صار الآن بحوزة تايرون ستروم، ولم تكن تملك شيئاً آخر تهدده به.

هل تقفز من المركب بهدف إرباكه ليس إلا؟ لكنّها رأت

منزعجةً أنه سيجد في هذا العمل وسيلةً صالحةً للتخلّص منها وأنه قد لا يُصِرُّ كثيراً على نجاتها. لهذا حيناً يلمت نفسه لم تكن تعتقد حقاً أنه سوف يتركها تغرق، بيد أنها وجدت فيه قساوةً صارمةً لم تلاحظها من قبل. سوف أهرمه! ينبغي عليّ ذلك! رُدّت طوال الليل.

ولكن، عند الصباح، تعذّر عليها البقاء في غرفتها، ذاك أنّ الجوع أضناها.

توجّهت الى المطبخ. وحسب الظاهر، كان الجميع قد تناول طعام الفطور كما كان رئيس الطهاة غائباً.

على الطاولة، عثرت نيفادا على بيض وبعض شرائح اللحم فطحتها بعد صعوبات جمّة.

كانت كل خبرتها في الطهي هي تلك التي اكتسبتها خلال النزوات في الهواء الطلق التي كانت تشارك فيها أحياناً. كان أصدقاؤها يجدون متعةً في طهو شرائح اللحم ومستلزماتنا على نار الفحم. حتى انها كانت تتنازل وتسمح لأحد ألطف الفتيان بإهتمام بها!

حرقت أصابعها وخيّل إليها أن قطعة اللحم ستكون كريهة الطعم لكنّها كانت تتصوّر جوعاً بحيث أتت على كل الطعام، بالرغم من أن الجزء الأكبر من طعامها كان مؤلفاً من خبز وزبدة.

والواقع أنّها لم تعثر على شيء من المربى أو العسل، فتساءلت أين يُمكن أن يكون. ولما لم تجد أحداً تسأله عن ذلك، فقد اكتفت بما وقعت عليه.

رجعت الى غرفتها، فوجدتها تماماً كما تركتها. السرير في اوضى، والثياب التي خلعتها مساءً مبعثرة على الأرض. وبحق، رفست ثوبها. ثمّ انتهت الى أنه من أجمل أثوابها فالنظمت وعلّقته في خزانة الثياب.

نظرت باشمئزاز الى حقائبها الكثيرة. كيف يمكنها أن تهتمّ بمتاعها من دون مساعدة؟ ثمّ بعد أن أخرج الثياب التي ترغب في ارتدائها، كيف السبيل الى ترتيبها من جديد؟

جلست على فراشها. ما العمل؟ كيف يمكنها إقناع تايرون بترؤم بوضع حدّ لهذا القصاص السخيف، إن لم يكن بالقوّة، فعل الأقل بوسائل أخرى؟

لقد كان الأمر قصاصاً حقاً لأنّها تصرّفت بفظاظة مع ابن الخلع، دافيد.

خيّل إليّ دائماً أن الرجال يتكاتفون، قالت. لكنّ هذه الطريقة فاقت حدود تصوّري.

وفكّرت في أنها لا تكره تايرون ستروم فحسب، بل دافيد أيضاً، وحتى كل الشباب الذين يشبهونه. في الواقع، كانت تكره الرجال جميعاً، وسوف تنتهز كل الفرص التي تلوح لها في المستقبل: سوف تجرح مشاعرهم وتعمل على تعذيبهم.

نعم. بيد أن قراراتها هذه لن تبدّل شيئاً في الوضع الراهن. تايرون ستروم يتحكّم بها، وهي لا ترى أي سبيل للإفلات وبعد أن فكّرت في الأمر طويلاً، قرّرت تغيير تكتيكها، أفرغت

إحدى حقائبها حتى وجدت ثوباً رأت أنه يناسبها تماماً، وغُيِّرَت
تسريحة شعرها. ثم توجَّهت الى الصالون.
وكما توقَّعت، وجدت تايرون في مكتبه.
- هل أنت... مشغول سألت بصوت ناعم ومتردِّد.
إذا كنتَ مشغولاً فإني... سوف أعود فيما بعد.
- ماذا تبغين؟ سأل بخسونة.
- أرغب في ... التحدُّث إليك.
- ليس بيننا ما نناقشه.
- تكون غايَةً... في اللطف... لو أنك تتحدَّث إليّ.
أبعد أوراقه جانباً بتنهيده غيظ.
- ممتاز! إذا كنتِ تحملين قنبلة ترمينها أو تخبئين حرباً
بين ثنايا ثوبك، فأخرجيهما. أنا مشغول جداً!
- لا... ليس معي شيء من كل هذا.
اقتربت نيفادا من المكتب وجلست على حافة الأريكة لي
مواجهة تايرون ستروم.
كان شعرها الأصهب المنسَّق بفن وبراعة يحيط كالهالة
بوجهها القمريِّ الشكل، مبرزاً عينيها الكبيرتين الخضراوين.
- مستر ستروم... أودّ ببساطة أن أعبر لك... عن مدى
أسفي...
وأضافت تحت نظرات تايرون ستروم الهادئة:
- لقد فكَّرتُ فيما قلته لي... وبتُّ أفهم الآن... أنني
أخطأت... أخطأت تماماً... بمعاملتي دافيد بقساوة. الواقع

الذي لم آخذ تهديده بالانتحار على محمل الجد. أنا لا أعرف
الشيء الكثير عن الرجال... إذ لا أخ عندي...
خلفضت عينيها، وكانت رموشها البالغة السواد تتنافر مع
بوسدها الأبيض. وأكملت بصوت هادئ:
... أنا أسفة... أسفة حقاً... لأنني كنت كريمة الى هذا
الحدِّ.
وانتظرت. فانفجر تايرون ستروم ضاحكاً
- رائع، كأداء مسرحي، يا نيفادا. ومن المؤسف أنك غنيَّة
الى هذا الحد. فقد كان بإمكانك جني ثروة من التمثيل.
- أنا... لا أمثَل، قالت معترضةً، بيد أن صوتها راح يرتفع
والرغم منها.
- لا ينقصك سوى جمهور جيّد، قال. وأنا متأكّد من أنك
أمكن العديد من المشاهدات. أما فيما يتعلّق بي، فأنا أرتاب
الأمرأ عندما أرى مذنبين يتوبون لمجرّد رؤية السُّوط.
مشت نيفادا على شفيتها للحظة.
كان غايَةً في القساوة معها. وكانت تجد صعوبة في كظم
غضبها.
- ينبغي أن تصدّقني... مستر ستروم، قالت. أنا أسفة حقاً.
- إذاً، أنا مسرور لمعرفة ذلك، لكنّ هذا الأمر لا يغيّر شيئاً
لي مشاريعي. أنا لا أزال أرغب في تحويلك الى امرأة. أتمنى لك
لعمراً هنيئاً، والآن، أعذريني فأمامي عمل أكمله.
نهضت نيفادا.
- أرجوك، أوقف هذه اللعبة السُّخيفة، قالت راجيةً - هذه

المرة لم تكن تمثّل - أعِدني الى ديارى، وانا اعدك بالأأ أتصل
بدافيد ولا بأختك... انا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...

- ولم لا؟ سأل تايرون ستروم. *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*
- لأنني لم... أعش هكذا أبداً.

- في هذه الحال، عليك أن تعيشي هذه التجربة كأنها
مغامرة، مغامرة قد تسلي روايتها أصدقاءك عندما تعودين الى
نيويورك.

- متى أعود الى بيتي؟ قلت لي، *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*
- عندما أرى أنك بُت مهياةً لذلك.

- كن رصيناً، توصلت نيفادا. لقد أخذت بثأرك. أنا مستعدة
للزحف مؤكدة لك أسفي، طالبةً منك السماح على كل الإساءة

التي تسببت بها، بيد اني لا أستطيع البقاء هنا بمفردى معك
فلو علم أحد بذلك، لوقعت الفضيحة. *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*

- لن يسمع أحد بالأمر، أكد تايرون ستروم. لقد اتخذت
التدابير الضرورية بهذا الشأن. إن تشارلي ودافيد والآخرين

يظنون أنك رجعت الى أميركا، باستثناء شقيقتي، طبعاً. وإذا
كتبت السيدة لانغهولم. يوماً تسألك إن كان بإمكانها موافاتك،

فسوف تسوي شقيقتي المسألة. على كل حال، فإن الكثير من
الناس في الجنوب الفرنسي أو في أي مكان آخر يرحّبون

باستضافتك. *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*
تتهدّت نيفادا. كان ذلك كما لو كانت مسجونةً في زنزانة لا

منفذ لها.
- اما فيما يخصّ الفضيحة، اضافة تايرون ستروم، فإن

امر إخبار الناس، بعد عودتك الى حضارتك، بما حصل على
ظاهر هذا المركب، متعلّق بك وبك وحدك. *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*

- هل تظنّ أنني سوف أرغب في ذلك؟ قالت نيفادا، بحدة.
أنت تسخر مني. أنت تعاملني كجانحة، وهو امر لا افتخر به

بالتاكيد. لماذا الإستمرار على هذا المنوال؟ لقد أخذت بثأرك.
ألا يكفيك هذا؟

- لكّل منا ما يطمح إليه، بشكل أو بآخر، كما سبق وقلت
لك، اجاب تايرون ستروم. إن طموحي في الوقت الحاضر هو

تغيير نموذج فتّي لا يُرضي البشرية في شيء. قد لا أنجح في
سماعي. قد يكون تحقيق ذلك مستحيلاً. ولكن، على الأقل،

أكون قد حاولت.
- انا لست كرهية، قالت نيفادا بغضب. ولست سيئة

والريرة كما ترغب في إيهاام الناس. لقد كنتُ رعاء، وأنا
مستعدة للإعتراف بذلك: ربما غرّني إعجابُ الناس بي،

موافقة! أما فيما عدا ذلك، فانا فتاة طبيعية ومشاعري هي
مشاعر الفتيات الأخريات نفسها. *أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...*

- على العكس. فانا أميل بالأحرى الى الإعتقاد بأنك فتاة
استثنائية، قال تايرون ستروم. قلت لي، مثلاً، إن فكرة الحب

أمر اشمنزازك.
- وهو رأي صحيح تماماً، اجابت نيفادا.

- اية امرأة تملك مزاياك، لا تشعر بالإنجذاب الى الرجال
الذين يقعون أسرى حبّها، وبالحنان والشفقة؟ من لا يشتهي أن

يُحبّ، ويحبّ كما هي حال الرجال والنساء منذ بدء الخليقة؟

كان صوت تايرون ستروم يهدر في الصالون ويتردد صداه،
- وما حيلتي إذا كنت هكذا؟
- هذا ما أجهد نفسي لاكتشافه، أجاوب تايرون ستروم. قد
يطول بي الأمر. وكلّما أسرع في الإقتناع بهذه الفكرة، كلّما
اختصرت الوقت.
إنقضت نيفادا.

عالم - أنا أكرهك! أكرهك! وانت تُثير اشمئزازي! سوف اقتلك
إذا أُتيحت لي الفرصة. كان عليّ قتلك قبل أن تأخذ مني
مسدسي.
- خسارة أنك لم تُعني التفكير في ذلك، قال تايرون ستروم
ساخراً.

جمعت نيفادا قبضتها ففهم أنها ترغب رغبة جامحة في
الإنقضاض عليه لتمزيق وجهه، كما حاولت من قبل.
ثم، وقد تذكّرت الصفحة بلا شك، إستدارت على عقبيها
وانطلقت نحو الصالون، مُغلقة الباب خلفها بعنف.
أما تايرون ستروم فعاد الى أوراقه ضاحكاً.

الفصل

٤

ن تتأرجح على ظهر بعير يشبه الى حدّ ما ان تكون
على رأس الأمواج، فكُرت نيفادا.

كادت تشك في صحّة مغامرتها. فالواقع أنها
كانت تنتقل في نوع من المحفّات(*) المربوطة على ظهر بعير. كان
هذا الكرسي من القصب المجدول والملوّن، ومغطى بستار.

كانت هذه المحفّة مخصّصة لنساء المجتمع الصحراوي
الراعي، فيما الباقيات يمشين على الأقدام، إما محجّبات بالأزرق
أو متدنّرات تماماً بالحِيك على الطريقة الإسلامية.

كانت قد تعلّمت اسم هذا الرداء الأبيض الفضيض من
الكتب التي قرأتها قبل مغادرتها اليخت.

إلا أن هذه الكتب لم تحضّرها للإحساس الغريب الذي
أدركت به لحظة مغادرة اليخت، إذ خُيل إليها أنها فقدت
هويتها لتصير نوعاً ما ملكاً من ممتلكات تايرون ستروم.

(*) المحفّة: كرسي يُحمل عليه المسافر ويحيط الخشب بالقاعد فيه من جميع
جوانبه (م).

وفيما كان اليخت يمخر بمحاذاة سواحل المغرب، قرّرت ان تتخلّى عن كبرياتها ورجت تايرون ستروم ان يُعطيها بعض الكتب.

إنتهى بها الأمر إلى أن ضجرت من الحَرَد في غرفتها التي بدت لها أنها تضيق وتزداد إزعاجاً كلما فتحت حقيبة من حقائبها، أو راحت تذرع سطح المركب، بينما يتجاهلها مضيفها وأفراد طاقمه على حدّ سواء.

أمّا رتبة تلك الأيام فكانت تقطعها فقط للحظات التي تنشغل فيها بإعداد شيء تأكله.

كانت رؤية الأطباق الشهية والمقدّمة بعناية لتايرون ستروم تسبّب لها ضيقاً لا يُطاق خصوصاً حين تجد نفسها لاحقاً امام قطع من الدجاج أو اللحم أو السمك ينبغي عليها ان تُعدّها بنفسها.

«أكره إعداد الطعام»، كانت لا تفتأ تردّد.

مع ذلك، راحت تراقب رئيس الطباخين الصيني وهو يعمل، فوجدت بعد وقت قصير أن الطعام الذي تُعدّه صار الدُّ منه في تجربتها الأولى.

كانت تجد مَدْلَةً في الذهاب الى المطبخ لتناول الطعام. ناهيك عن ان كل شيء على متن «مولاي» كان يزعجها.

وذات صباح، بعد طعام الإفطار، وفيما كانت تتأمّل الشاطئ المشمس، وافاها تايرون ستروم على سطح المركب. فأجأها قدومه أيّما مفاجأة.

وقف تايرون ستروم قرب الدرايزين يراقب الشاطئ.

وبالرغم من قرار نيفادا بعدم المبادرة الى الحديث، إلا أنّ شيئاً في مظهر تايرون دفعها إلى سؤاله: «أين نحن؟»

«لقد تخطينا أغادير. هنا تختفي جبال الأطلس الأعلى في البحر.»

والواقع أن تلك القمم الجرداء والذكناء التي تشرف على زرقاة الأطلسي المتموجة كانت تؤثر فيها. بيد أنها لم تشأ أبداً الإقرار بذلك.

كانت الشواطئ الصخرية الهائلة التي تتحطم عليها الأمواج تتعاقب والوديان المخضوضرة المزروعة موزاً وذرةً.

ثم برز خليج صغير على شكل هلال تحيط به الرمال بلون الدراخن. وفي البعيد، ظهرت سطوح منازل إحدى المدن: أغادير، قالت في سرّها.

كانت المدينة جاثمةً وسط وادٍ مخضوضر تحيط به الأشجار. وجدت نيفادا مشهدها رائعاً، متمنّيةً في قرارة نفسها لو تتحدّث إلى أحدٍ ما.

والحال أنها رفضت كسر جدار الصمت شبه التام مع الأبردين ستروم. فقد كانت لا تزال تكرهه بمثل الحدة التي

كرهته بها أيام السفر الأولى. والمرة الوحيدة التي فكّرت فيها بغير الحقد، كانت عندما استغرقت في مطالعة الكتب التي

أعارها إيّاها.

كان في الصالون عدد كبير من رفوف الكتب لم تُلاحظه في بداية الأمر. أكثرها تقريباً يتعلّق بإفريقيا، وبالمغرب خصوصاً.

كانت غالبية تلك المؤلفات باللغة الفرنسية، وسرّها أن تتيج لها ثقافتها، التي كلّفت أبيها ثروة لا يُستهان بها، قراءة تلك اللغة بسهولة.

لأول وهلة، خُيّل إليها أن لا شيء يهمّها في تلك الكتب، ولكن، بعد أن شرعت في قراءة تاريخ المغرب، رغبت في المزيد من الإطلاع.

ولما فتنتها أخبار الأعمال الحربيّة بين القبائل المختلفة، راحت تلتهم عدّة كتب كلّ يوم، إذ كانت أيضاً قارئة سريعة، وبما أنها كانت تودّ أن تتجنّب تايرون ستروم، فقد صارت تذهب الى الصالون عندما تعرف أنّه في الطبقة العليا، أو يمارس الرياضة على سطح المركب.

لم يكن يمشي بكثرة فحسب، بل كان يقوم أيضاً بالكثير من التمارين الرياضية التي تساعد على الاحتفاظ بلياقته وخفته.

لم تكن قد نسيت بعدُ الطريقة التي خطف بها منها مسدّسها في حين حسبته تحت سيطرتها. وكان خدّها يُحرقها كلّما فكّرت في ذلك. ساد صمت طويل بعد أن أخبرها تايرون ستروم أنهم تجاوزوا أغادير. ثمّ، إذ عجزت عن ضبط فضولها،

سألت نيفادا: «نصبرنا قليلاً، فمما ولما لو لم

إلى أين نتوجّه؟ - جئتُ بالضبط لأحدّثك في هذا الموضوع.

إنكأ، وهو يتكلّم، على الدرابزين، ونظره نحو الشاطيء، فحدجته نيفادا بنظراتها، دون أن تدير رأسها. كان بحق

منمّرّاً للغاية. لكنّها فهمت في الوقت نفسه أن لديه نبأ جديداً مرعجاً يُخبرها إيّاه.

- لن نلبث أن نغادر اليخت. ثمّ، سوف نسلك منطقة قلّما يمرّ فيها أوروبيون، هذا إذا مرّ بعضهم؛ ولهذا السبب، يجدر بك أن تلبسي كما تلبس نساء البربر، وأن تضعي اللثام. كانت نيفادا قد علمت من خلال قراءتها أن اللثام هو الحجاب الذي تضعه النساء المسلمات.

- أرفض ذلك، أجابت بعجلة. في الحقيقة، إن استكشاف هذه المنطقة المكتشفة حديثاً كان يثير اهتمامها غير أنّها لم تشأ أن تبدي أيّ اهتمام بهذا العرض، ولهذا عازمت على مقاومته بما أوتيت من قوّة.

- لقد سبق وفسّرت لك انه من الجنون وربما من الخطر أن تذهب حيث اصطحك إذا لم نتقيّد بعبادات البلد، قال تايرون ستروم بهدوء، كما لو كان يتحدّث الى طفل.

- لما كنتُ لا أرغب في الذهاب الى أيّ مكان برفقتك، مستر ستروم، فسوف ارتدي ما يحلو لي. وإن لم يُعجبك ذلك، فإنّ العلاج الوحيد يكمن في ارجاعي الى أوروبا والكفّ عن التصرف بالبربري.

- لو كنتُ بربرياً، أجاب تايرون ستروم، لكان اعتراضك والشكوك من المعاملة التي لقيتها على مركبي يختلفان تماماً عمّا هما عليه.

نظرت اليه لحظةً، جاحظة العينين. ثمّ، أمام تعبير وجهه ورسمه الهزء على شفثيه، أشاحت بوجهها، مدركة الصدمة التي

دوّت في قلبها: هي الخشبية شعرت بها في تلك اللحظة، لا شك في ذلك!

- إذهبي وارتي ثيابك. سوف تجدينها في غرفتك. إنه أمر فنّذيه.

وإذ رفضت أن تُذُلَّ كبرياءها، ورغبةً منها في فرض نفسها، مع ما في ذلك من صعوبة، قالت نيقادا وهي ترفع رأسها:

- وإذا رفضت؟

- عندها تعرفين أن بمقدوري أن أكون أيضاً مُلبسةً ثياب قديرة! أجاب تايرون ستروم بهدوء متوقفاً عند كل كلمة بأسلوب ساخر. والحق يُقال إن لي خبرة طويلة في هذا المضمار.

لم يكن ثمة شك في التلميحات التي تختبئ خلف هذه الكلمات. ودبّ الإحمرار في وجنتي الفتاة فنزلت الى غرفتها، ترتجف غضباً.

وهناك، استولى عليها الذهول: حقائقها كلها اختفت. لم يبق منها سوى سلّة صغيرة من القصب بدائية الصنع، عثرت فيها على أحد ثياب النوم خاصتها بالإضافة الى فرشاة عادية ومشط لا يخصّانها.

كذلك، استبدلت أدوات زينتها ومكملاتها الذهبية بمجموعة من القوارير الدقيقة والعلب الصغيرة التي تحتوي على أدوات تجميل محلية.

وعثرت بينها على الكحل الذي تستعمله النساء العربيات

المسليط عيونهنّ؛ والحنة، لتخضيب الكفّ وباطن القدم، وكذلك حل دهن ملوّنة للشفاة.

نظرت الى كلّ هذا بدهشة بالغة، ثم حانت منها التفاتة برأت على فراشها قفطاناً أبيض مطرزاً بالذهب بدقّة، ولثاماً الذي ترخيه النساء على وجوههنّ، وأخيراً خيلاً فضفاضاً بحيث يطغى نيقادا تماماً بين ثناياه فيستحيل اكتشاف هويتها.

ورأت أيضاً على الفراش بعض الحلّي الذهبية: عقود، أقراط طويلة، أساور وما خُيّل إليها أنه تاج، وقد كان عبارة عن شريحة عريضة مشغولة بدقّة يتدلّى منها حجر فيروز مرصّع بحبيبات من الألماس.

اختفت حلاها الخاصة ومالها الخاص. وشعرت للحظة ورغبة في الإنقضاض نحو سطح السفينة وأتاهم تايرون ستروم بالسرقة وبأشياء كثيرة أخرى.

ثم فكّرت في أنه سيكتفي بتجاهل اعتراضاتها.

رأت على ذلك أنها أحسّت منزعةً بأنه لم يكن يمزح عندما تحدّثها بأن يجردّها من ثيابها بنفسه في حال رفضت الإنصياع لأوامره.

وبفعل هذا، بي أنا! صرخت نيقادا بصوت عالٍ.

مع ذلك، وبالرغم من خوفها الذي رفضت الإعتراف به، لم تكن ثيابها على مهل وارتدت القفطان.

لم تكن تعرف تماماً ماذا تفعل بشعرها؛ فمن السخف وكان تسريحه كما درجت عليه. وبكل بساطة، سحبت الأرباس التي تثبته وتركته مرخياً على كتفها.

نظرت في المرآة، فلم يَفْتُها أن جمال شعرها الناري المنسدل حتى خصرها يبرز بفضل الفقطان الأبيض الذهبي.

ولكن، ما نفع أن تكون فاتنة - ما لبثت أن تساءلت بأنين في عيني رجل يكرهها بقدر ما تكرهه!

بيد أن الوقت كان يمر. أخذت التاج في نهاية الأمر ووضعتة بحيث تتدلّى حبة الفيروز الى وسط جبهتها. ثم حملت اللثام خائفة العزيمة.

كانت تشعر بوضوح أن هذا الحجاب يعني استسلامها الكامل أمام إرادة تايرون ستروم وتأثيره. وفجأة، قرع أحدهم الباب فانقطع حبل تفكيرها.

دخل تايرون ستروم الغرفة دون انتظار الجواب - هل أنت جاهزة؟

- لا أعرف كيف اضع هذا... أجابت وهي تمدّ له اللثام، أخذه منها وهو ينظر الى شعرها الأصهب المبعثر على كتفها.

- أولاً ضعي القرطين في أذنك.

توجّهت الى السرير فأخذتهما ووضعتهما في أذنيها. ولما كانت تمتلك اقراطاً ثمينة للغاية ورثتها من والدتها، فقد كانت شحما أذنيها متقويتين لحسن الحظ.

كان قرطا الذهب المستطيلان والمنقوشان بدقّة يتدلّيان قلبها من أذنيها، لكنّها فكّرت في انهما سيكونان ثقيلين جداً عند نهاية النهار.

ثم وضعت في معصمها أيضاً عدة اساور، وفي أصابعها عدداً من الخواتم.

- خضّبي يديك بالحنّة، أمر تايرون ستروم، ولوّني اظفارك. رغبت في تحدّيه والرفض: لكنه بدا لها كبيراً وقويّاً في تلك الغرفة الضيّقة بحيث رضخت له في حركة شبيهة اللّية.

لم يدم ذلك طويلاً. كان يقف الى جانبها صامتاً، ومع ذلك، لقد كانت الفتاة تشعر بحضوره تماماً.

وعندما انتهت، كان لون يديها غريباً للغاية. وأضاف تايرون ستروم:

- الآن، ضعي الكحل حول عينيك!

ومن جديد، أرادت نيقادا التمرد، إلا أنها فهمت عدم جدوى ذلك. كانت عيناها تبدوان، وقد كُحلتا بالاسود، واسعتين وبالعنق الإخضرار.

ثم أصلح تايرون ستروم اللثام على أنف الفتاة. كانت يدها لا مباليتين، كما لو كانت هي أرجوزاً أو قطعة من الخشب، لم تلمس نيقادا باستياء.

أخيراً، تناول الحيك من الفراش وانتظر حتى تنهض نيقادا عن الكرسيّ حيث جلست تتبرّج، فغطّأها كلّها بتلك الغلالة الشاملة، ثم استدار نحو الباب.

- سوف ننزل الى اليايسة بعد عشر دقائق، وسيدلّك احد الخدم على المكان الذي أنتظرِك فيه فتتبعيني دون أن تنبسي صوتك شفة حتى تبلغ الجمال.

ويخرج من الغرفة.

طاطر بأن الثوب الفضفاض كان يجعل من تايرون ستروم أكثر ضخامة ومهابةً مما هو عليه في اللباس الأوروبي.

كان يبدو بسهولة، بلونه البرونزي وسماته الدقيقة، وكأنه ينشأ من إحدى القبائل القديمة التي زخر بها الجنوب المغربي.

لم يوجّه إليها الحديث عندما ظهرت. بل استدار بكل بساطة وبذل العبارة إلى الرصيف الصغير حيث رسي اليخت.

لم يكن المرفأ مرفأً مرفأً شرعياً. فقد كانت بعض البيوت النادرة تبعدُ بعيداً من الرصيف، بيوت ضيقة كلها وفي حالة مزرية، مبنية بالطوب الذي اكتسب صلابته من الشمس.

عمل ان نيفادا عندما وطأت الأرض، لم تركز نظرها على تلك الابنية البدائية ولا حتى على ضواحيها القاحلة. فهي لم تَرَ أولاً سوى الجمال والحمير، تنتظر فيما يُشبه القافلة.

كانت الجمال باركة، تُدير عنقها الأفعواني الطويل ذات اليمين وذات اليسار، ويصدر عنها في الوقت نفسه صوت غريب، يشبه كمثل الزمجرة المكتومة أو الغليان العجيب.

وحيا تايرون ستروم رجالٌ يلبسون أثواباً من القطن الأزرق الفاتح وعمامات سوداء.

كانوا ضخاماً، رشيقى الجسم، أقوياء، ذوي شعر طويل أسود وناعم، وهم كلهم سود العيون، صغار الأنوف. ولحت نيفادا أيديهم الناعمة بغرابة.

افترضت أنهم «الرجال الزرق»، أولئك البدو المشهورون في

جلست نيفادا على الكرسي، كما لو أن رجليها عجزتا عن حملها. نظرت الى نفسها في المرآة. هل تُراها هي نفسها كتلة الثياب الصغيرة هذه، المثقوبة في مكانين لتمكّن العينان من الرؤية؟

كانت تشعر شعوراً رهيباً بأنها تترك خلفها نيفادا فارس أردن، في ضياع تام، وبأنها لن ترجع أبداً الى العالم الذي عرفته سابقاً.

ثم قالت في نفسها إنها تهذي وإن ما تُقبل عليه ربّما يكون لعدم وجود خيار آخر، مغامرةً قد يكون من المسلي أن ترويها يوماً ما أو حتى أن تكتبها في مذكراتها.

وما لبث أن حضر خادم لاصطحابها. حمل السلّة وتراء نيفادا تتقدّمه، فمشت بلباء، وقد قرّر قرارها على عدم إظهار خوفها.

والواقع أنها فوجئت بعض الشيء حين شاهدهت. كانت نسيباً انه لما كانت قد ارتدت الزي المحلي، فعليه هو أيضاً أن يحذر حذوها.

كان يرتدي الأبيض ولا شيء إلا الأبيض. يلبس ثوباً فضفاضاً كالذي يلبسه المشايخ، وسرواله حتى أسفل الساق تضمّه جزمتان من الجلد.

كانت عمامة بيضاء تغطّي رأسه، شأن كبار زعماء البربر وعلى وسطه الايسر، علّق برباط ذهبي خنجراً مغريبياً في غمّة مزين بالحجارة الكريمة.

لو لم تكن تكرهه بمثل هذا العنف، لأقرّت نيفادا بكل طيبها

صحراء الجنوب المغربي، الذين يتحدّرون من أصل عربي وبربري.

لقد اكتسبوا لقبهم من ثيابهم المصبوغة بالأزرق. والواقع أن لون ثيابهم لم يكن ثابتاً على الدوام، فكانت أجسامهم ووجوههم تحمل أحياناً آثار ذلك اللون.

وبالرغم من أنها قرّرت مقابلة كل ما يفعله تايرون ستروم بعدم الإكتراث، إن لم يكن بالعدائية، فإن نيقادا لم تستطع منع نفسها من الإهتمام بالرجال الزرق وجمالهم. كانت أسرجة الحيوانات مزينة بشرابات ومزيج من العنبر، والبُلُوط والحجارة الملونة، التي قد تكون قطعاً من البورسلين، لكن نيقادا لم تكن متأكّدة من ذلك.

ولم تسنح لها فرصة كبيرة لمراقبة ما حولها. إذ لم يلبث تايرون ستروم أن أشار بيده الى أحد الجمال وقد وُضع محمّل على ظهره: كان الحيوان مطيّة نيقادا للسفر.

ساعدها أحد الرجال الزرق في اعتلاء الجمل، شائحةً بنظرها رغم أن وجهها كان مستوراً، باستثناء العينين.

وتمسّكت نيقادا بقوة بمرفقي كرسيتها الغريب. ثم نهض الحيوان ببطء شديد، وتحرك الجميع فيما يشبه الموكب الطويل.

كان تايرون ستروم يتقدّم الجميع على ظهر حصان؛ يتبعه رجال يمتطون الحمير أو يسوقون الجمال المحمّلة متاعاً ورزماً. كانت نيقادا تتعذّب كثيراً لعدم معرفتها الى أين يتجهون،

وكانت ساعتئذٍ نادمةً لأنها لم تستجوب تايرون ستروم بجديّة أكثر عندما أعلمها بقرار مغادرتها ليخت. أين تهيأ قتلها؟ كان من البديهي أنهم بلغوا الصحراء، ولكن، أين الرمال؟ والأرض مسطّحة وصخريّة، وعلى امتداد النظر، كانت تتراعى الحمى والأرض القاحلة المجدبة.

بيد أن هذه المنطقة لم تكن مجردة من الجمال. فلون الأرض كان يتحوّل بغرابة من الرماديّ الكامد إلى البرتقالي ومن الأسمر النحاسي الى الأحمر الأنقى. وكانت نيقادا تشعر بهدّة بالمسافة اللامحدودة وبقبّة السماء الهائلة فوقها.

ساروا هكذا مدّة ساعتين تقريباً دون أن يتغيّر المنظر الصحراوي كثيراً. وأحياناً، كان يرتفع بناء في البعيد، فتعرف نيقادا أنه قصبّة (*).

كانت كلها صغيرة وغير مهمّة. وكان لونها يختلف أيضاً، إذ كانت مبنيةً من المادة نفسها التي تتكوّن منها الأرض حيث أنشئت.

لفتت نظرها إحدى هذه الأبنية. كان لونها سمار القشدة الذهبية الممزوجة بالحليب، تحيط بها بعض أشجار النخيل والأشجار المثمرة.

وبدا واضحاً أنّ تايرون ستروم لا يرغب في التوقّف. فتابعت القافلة سيرها، ببطء، ومثابرة. وكانت نيقادا تتمايل على إيقاع خطى جملها، وقد سرّها جداً أنها لم تُصَب بعد بدوار البحر.

(١) قلعة يُقيم فيها أمير أو زعيم (م).

وبغته، دونما سابق إنذار، رفع تايرون ستروم يده فتوقفت القافلة. فوجئت نيفادا بذلك إذ أن المنظر كان هو هو ولم يكن ثمة ما يشير إلى أنهم وصلوا إلى مكان ما. وإذا استدار تايرون ستروم بحصانه، تخطى رتل الجمال والحمير وبلغ نيفادا. وباللغة العربية، أصدر أمراً وجزياً؛ فقال الجمال بضغ كلمات فخرَ الجمل على ركبته بهدوء، مُصدراً زمجرةً مخنوقة. نظرت نيفادا إلى تايرون ستروم، متسائلةً.

- ترجلي، قال أمراً. ومن دون أن تفهم السبب، وضعت نيفادا رجليها على الأرض، بمساعدة الجمال، مسرورةً لأنها سوف تترك المحفة بعض الوقت.

كانت تحتذي بابوجاً موثى بالذهب. كان خفيفاً للغاية فشعرت نيفادا بقساوة الحجارة تصطدم بباطن قدميها. ولما كانت تتقدم بحذر، راجيةً الأُسير طويلاً، فقد قفز تايرون ستروم عن صهوة جواده وأقبل نحوها.

- سوف أريك شيئاً. حدثت به بدهشة. فحسب الظاهر، لم يكن يحيط بهم سوى الفراغ.

مع ذلك، قادها إلى جهة بعيدة قليلاً عن القافلة. وما لبثت أن رأت كومةً لم تتبينها على الفور. إقترب منها، بينما نيفادا لا تفكر سوى برجليها اللتين يزعجانها. وفجأة، رأت عظماً، ثم جمجمةً.

توقفت تايرون ستروم. خيّل إليك أن رؤية ميتٍ أمر مثير للاهتمام، قال. هذه المرة أحدهم. إغتاله بعضهم، ووفق العادة المغربية، لا تُؤارى الضحية الثرى قبل أن يُثار لها من القاتل. وأطلقت نيفادا صرخة مكتومة. فقد رأت الهيكل العظمي كامله، في المكان نفسه الذي سقط فيه الرجل. كانت النسور قد أذات اللحم، فبدت أسنان الجثة المجردة مكشّرةً في الجمجمة الفارغة الحدقات.

كانت الأصابع العارية من اللحم ممدّدة على طول ما كان في السابق جسماً بشرياً. فلم يبق من الجلّابية والعمامة سوى بعض المِرْق، في حين أحرقت الشمس كل شيء وأتت النسور على ما تبقى.

كاد نفسها أن ينقطع، وأرادت أن تعود أدراجها بيد أن تايرون ستروم أمسك بمعصمها بشدّة. أريدك أن تنظري إلى هذا الرجل، قال بصوتٍ قاسٍ ومزدر. ففكر في كما كان، شاباً، شجاعاً، متفائلاً، طموحاً ومغرمًا على الأرجح.

ودفع نيفادا بحيث تكون أقرب إلى الجثة. لقد مات اليوم، فانظري إلى ما تبقى منه! وحاولت التخلص من قبضته إلا أنها سرعان ما أدركت تجدين فكرة الموت مدعاةً للمزاح، أضاف تايرون ستروم.

إنَّ الموت، في رأيي، لَحُطَامٌ تعيس متى أقبل مبكراً جداً. إنه لمن العيب أن يموت شاب بسبب جشع أحدهم أو قساوة امرأة. واغمضت نيفادا عينيها.

لم تتحمل رؤية الهيكل العظمي. أكثر من ذلك، فقد كان اتهام تايرون ستروم أقطع من تلك العظام العارية من اللحم ومن تينك الحدقتين الفارغتين اللتين سبق لهما أن نظرا إلى الحياة بفضول.

وفجأة، شعرت بأنه سيغمى عليها. وما من شك في أنها ترنحت قليلاً، بحيث فهم تايرون ستروم ما يختلج في داخلها. ترك معصمها. فانطلقت نيفادا، خائفة القوى، نحو الجمال تتعثر كمن فقد نظره.

وعلى الأرجح، ساعدها أحدهم في الصعود إلى محفتها. ثم عندما انطلقت القافلة من جديد، وعلى رأسها تايرون ستروم، غطت نيفادا وجهها بيديها.

هل أرادت حقاً الهزء بالموت؟

هل أرادت حقاً دفع دافيد إلى الانتحار؟

كان كل ذلك يبدو بعيداً جداً! ومع ذلك.

لو أنه مات، لما تمكنت أبداً من مسامحة نفسها... ولا من

نسيان الأمر. لقد باتت الآن متأكدة من ذلك.

وسارت القافلة ساعة أخرى، ثم توقفت من جديد قرب غابة صغيرة من البلح.

ترجلت نيفادا. كانوا في واحة، فسرت الشابة، بعد تلك الشمس الحارقة، بأن تنعم بظلال شجر البلح المنعشة الرقيقة.

كان الحجاب الذي يغطي وجهها يسبب لها حرارة بالغة وقد أعدت إمامته فمنعتها من ذلك الخشياً من ردة فعل تايرون ستروم.

أخذ أحد الجمالة عن ظهر جملة غطاءً فاقع الألوان ففرشه في الجهة الأخرى من الواحة. واتجه تايرون ستروم نحوه المهتم نيفادا أنه سيمكث هناك.

وانتظرت، لا تعرف ماذا تفعل. ثم رأت تايرون ستروم يستدير ويُقبل نحوها.

هرعت لمقابلته، أسرع ممّا لو كانت عطشى.

على الأقل، فكّرت في نفسها، لن يُطلب منها أن تحضر طعامها في وسط هذه الصحراء.

جلس تايرون ستروم على الغطاء وعقد رجليه تحته، على الطريقة الشرقية. وحاولت نيفادا تقليده، إلا أن قفطانها كان ضيقاً للغاية؛ فلم تتمكن سوى من الركوع ثم الجلوس على يديها.

وجيء لهما بالطعام كما أحضر لهما خادم قربة من جلد الماعز فيها ماء... ملأ لهما قديحهما. وودت نيفادا لو تشرب في الحال، لكنها تصوّرت أنه من غير اللائق حتماً إمالة لثامها في وجود الخدم، فانتظرت.

أخيراً، إبتعد الرجال المولجون بخدمتهما. وبالرغم من هولوسهم في الجهة الأخرى من الواحة، فقد أدار الجمالة والخدم الآخرون ظهورهم لهما، احتراماً منهم لحميمية جلسة سبدهم.

- بإمكانك أن تشربي الآن، قال تايرون ستروم
كان طعم الماء على شيء من الملوحة والمرارة، بيد أن نيقادا
كانت مستعدة لشرب أي سائل كان.

- ... هل تشعرين بتحسّن؟ سألت تايرون ستروم.
كانت المرّة الأولى التي يبدي فيها اهتماماً بها.
وفكرت في أنه لا يلمح فقط إلى ردّة فعلها امام منظر الجنّة
فهو على الأرجح، توقّع أن تمرض من طريقة السفر هذه.
- حالي على ما يُرام. أين ترانا ذاهبون؟

- سوف نمضي الليل في قصبّة أحد أهم مشايخ الجنوب
المغربي. قد لا يكون الأمر مريحاً جداً بالنسبة إليك؛ إذ عليك
الإلتحاق بجناح النساء

نظرت نيقادا إليه مكورة العينين.
- تعني... الحريم؟
- الحريم في المغرب ليس هو هو الحريم في تركيا، اجاب
تايرون ستروم. ثم اني لا اعتقد أنك تدركين الفرق بينهما.

ولزمت نيقادا الصمت.
كانت تشعر بالخوف يتنامى في نفسها. وكانت تقلقها فكرة
الذهاب الى مكان غريب ومجهول حيث لا أهمية لها إلا بمقدار
امتلاك تايرون ستروم لها.

وبدا أنه فطن الى خشيتها إذ قال:
- لن نمكث هنا سوى ليلة واحدة. من الضروري بالنسبة
إليّ مقابلة الشيخ حسن الزّعلي، زعيم هذه القصبّة حيث نذهب،
وكذلك مقابلة مشايخ وزعماء آخرين في المناطق المجاورة.

- ولماذا ترغب في مقابلتهم؟
تساءلت إذا كان سيعطيها جواباً صحيحاً أو أنّ لهذه
الزيارة علاقة ما بمآثره السريّة. وفوجئت به يقول:
- أنا في صدد تأليف كتاب.

- كتاب!
ومن دون أن تدري لماذا، كان جوابه آخر شيء قد يخطر في
بالها.
- يُدهشك الأمر؟ لطالما كان المغرب صقلاً حافلاً بالأسرار.
أنا نعرف القليل القليل عنه ونعرف أقل بكثير عن الشعب
الذي يسكنه.

كان نظر نيقادا مسمراً في نظر تايرون ستروم.
كانت مهتمة بالرغم منها، لا بل مفتونة، وكانت تخشى أن
يقوّف عن الكلام قبل أن يخبرها ما تودّ معرفته.
- إن ستاً وثمانين بالمئة من الشعب المغربي هم بربر أو
عرب، قال تايرون ستروم شارحاً، ويشكّل البربر النواة الأعرق
قدماً، النافذة والغامضة، التي سكنت افريقيا الشماليّة.
وابتسم للرومنسيّة في كلامه قبل أن يضيف:

- إنهم متوسّطيون. وهم ليسوا من الزنوج ولا من
السّاميين. الله وحده يعرف من أين أتوا.
- وتؤلف كتاباً عنهم؟
- أجد صعوبة في جمع كل المواد التي احتاجها لتأليف هذا
الكتاب. إنهم يعيشون في إفريقيا الشماليّة، خصوصاً في
الجهال، منذ فجر التاريخ.

كانت المدينة ترتفع فوق منحدر خفيف وكانت مبانيها
 مبنية بالأسوار المستننة تبرز فيها هنا وهناك أبراج عظيمة.
 وكلما اقتربت القافلة، كلما بدا المجموع أكثر ترمياً ومهابةً.
 وهددت نيفادا بعصبية لتتذكر ما حفظته عن القصة من
 الكتب التي قرأتها في البيخ. في رواية رويدات تحت
 كانت قد قرأت في مكان ما أن القصة نوع من قصور
 العصر الوسيط الكبيرة التي يقيم فيها زعيم القبيلة وحاشيته،
 ويخدمه والتابعون له. في رواية رويدات تحت
 بالإضافة إلى الأشخاص، كانت في القصة حيوانات، من
 غزل، وعز، وخراف، وحمير، وبغال ودجاج. لكن الحيوانات
 انطقت النهار خارجاً، إما في العمل أو في الرعي. وفي الليل،
 دخل الحيوانات كلها من الباب الكبير لتبقى تحت الحماية
 على الفجر.
 ليست القصة مكاناً للسكن فحسب، بل هي في الوقت نفسه
 أمانة مصفرة، ملكية تنتج كل ما هو ضروري للحياة اليومية،
 ربما عدا الشاي، والقهوة والسكر.
 وصل تايرون ستروم أمام باب ضخمة مزينة بمسامير من
 النحاس. ولما فتحت، تهافت منه عدة رجال يرتدون الثياب
 البيضاء ورحبوا به.
 ودخلت القافلة إلى حرم المدينة. فتمكنت نيفادا من مشاهدة
 سلسلة لا متناهية من الممرات المتعرجة اتاحت لها أحياناً رؤية
 مياه وينابيع.
 كانت لا تزال جائحة على جملها. فاقترنت إلى متاهة من

كان اليونان يسمونهم البدو الرحّل. وما من أحد يعرف أصل
 كلمة «بربر». في رواية رويدات تحت
 - أو تحبهم؟
 - إنهم شعب رائع، أجب تايرون ستروم. لم تُفسد
 الحضارة أبداً. وأغرق في الضحك.
 - هل ثقة مكان في العالم يُعتبر فيه الرقّ شيئاً عادياً،
 ويكون المقيمون فيه مستعدين للعيش بقوة السيف والخنجر،
 بينما النساء طاهرات وطيّعات؟
 كان في النعتين الأخيرين تلميح فهمته نيفادا على أنه
 استهزاء، لكنها، وللمرة الأولى، لم تُعره اهتماماً.
 - أخبرني أكثر من ذلك، قالت راجيةً.
 - سوف ترين، إن هذا العالم حرّياً بأن يُدرس ويُستكشف،
 أجبها. إلا أنني أنصحك، في الوقت الحاضر، أن تأكلي بسرعة
 لرغبتني في بلوغ مقصدي في أسرع وقت ممكن.
 ولما كانت نيفادا جائحة للغاية، فقد أطاعته دون معارضة،
 وهكذا أنهى الإثنان طعامهما بصمت.
 خُيل إليها أنه آخر طعام أوروبي تتناوله وتساءلت ما الذي
 ينتظرها.
 وما إن انتهيا من تناول الطعام حتى أكملتا طريقهما. كانت
 المناظر تتغير؛ والأرض تصير غزيرة الحصى. وفجأة، رأت نيفادا
 أمامها ما يشبه المدينة الحصينة الهائلة.
 تأملتها بدهشة. فقد كانت بالواقع كتلة ضخمة تحيق بها
 الأسوار المتفاوتة الارتفاع والسماكة.

الطرقات الضيقة تعج بالرجال، والأطفال والحيوانات الى ان وجدت نفسها أخيراً في ما تبينته مركز القصبية، حيث يسكن الشيخ.

كان كل شيء، هنا، مختلفاً. تبعت تايرون ستروم الذي ادخلها في ما لا يمكن ان يكون إلا قصرأ، خلف باب مزخرف بمهارة.

ونظراً الى التقشّف المغم الذي بدت عليه القصبية من الخارج، خالية تماماً من الشبابيك، فقد كان داخلها مثاراً للدهشة، بأرضه المرصوفة بالفسيقساء الدقيقة الصنع وبحواجهه المزخرفة بالفنّ العربي أو بقطع الزجاج المتنوع الألوان والرسوم المعقدة.

كانت السقوف من الخشب المحفور والمرسوم؛ كما تفصل بين بعض الغرف أعمدة تعلوها تيجان محفورة. كذلك كان هناك حُجُبٌ مشبّكة بديعة الصنع.

وكانت تغطّي الأرض سجّادات متعدّدة الألوان، هي من اختصاص الأطلس الأعلى، كما أعجبت نيفادا بالوسائد الجلدية الحمراء والخضراء والبيضاء والصفراء، المزركشة بالحريز والمصنوعة من جلود الماعز.

من السقف كانت تتدلّى فوانيس فضيّة. وكان المكان، في نظر نيفادا، مليئاً بالأسرار الشرقية التي تعجز عن وصفها بعد لحظات، أقبل نحوهما مسرعاً الخطى الشيخ حسن الزغلي، وهو رجل مسنّ، أبيض اللحية، يشكّ تحت حزامه

لمنجراً مزيناً بالأحجار الكريمة، فسلم على تايرون ستروم بكل مظاهر الإحترام.

وتجاهل نيفادا التي كانت تقف خلف تايرون بقليل. ولكن، بعد أن تحدث هذا الأخير مع الشيخ، ذكره بوجودها.

فزّرع الشيخ بأصابعه.

فظهر خادم دعا نيفادا الى اللحاق به.

خشيت فجأة أن تترك تايرون ستروم. ثمّ اختفت في المتاهة الشاسعة التي تبين أنها نصف قصر - نصف كوخ، قائلة في سرّها إنه سوف يزداد احتقاراً لها لو هي أظهرت قلقها.

وهكذا، تبعت الخادم عبر مماشٍ متلوّية بدت كأنها لا تقضي الى أي مكان.

ووصلت أخيراً الى باب مهيب، محفور ومزخرف وفق الفن المغربي. وقرع الخادم الباب.

فتحت امرأة محجّبة الباب فشرح لها الخادم، على الأرجح، من هي القادمة الجديدة.

ادخلت المرأة نيفادا وأغلقت الباب. عند ذلك، شعرت الفتاة بنفسها أكثر وحدة من أي وقت مضى.

وتحدّثت اليها المرأة، بيد أن نيفادا لم تملك سوى هزّ رأسها. ثم اقتيدت الى ممشى آخر في نهايته قاعة فسيحة.

كان هناك عدد كبير من النساء، غير محجّبات، بعضهن يجلسن على أغطية مخطّطة، والبعض الآخر على كنبات واطئة مغطّاة بالقطيفة الحمراء.

كان بعضهنّ في عمر الشباب، لكن الكثيرات كنّ عجائز،

كانت ترغب في الإطلاع على أمور كثيرة، وفي طرح جملة من الأسئلة.

وقد ندمت آنذاك على أنها لم تستفد من الوقت الذي أمضته على متن اليخت لتعلم بعض الكلمات العربية عوضاً عن التخاصم مع تايرون ستروم.

كانت النساء قد استنفدن تقريباً مجمل الإشارات التي أدقنها عندما ظهرت امرأة جديدة، تحمل طفلاً بين ذراعيها.

- أنتِ تتكلمين الفرنسية؟ قالت المرأة ببطء شديد، وبلكنة تجعل من فرنسيّتها صعبة الفهم.

- نعم، نعم أجابت نيفادا بحماس.

وحصل التخاطب بصعوبة، ليس فقط بسبب المفردات المحدودة جداً التي تعرفها القادمة الجديدة، بل لأنها كانت تعبر بشكل سيء يتعذر معه فك معاني جملها. بيد أن المرأتين تمكنتا من التفاهم.

وهكذا، علمت نيفادا، كما افترضت، أن النساء الكبيرات في السن من أم الشيخ، وجدته، وأخواته وعمّاته.

ولمّا كان دين الشيخ يسمح له شرعاً بأربع زوجات، فقد كانت الفتيات الأصغر سنّاً محظيّاتة.

وكانت شاحبات الوجه الذي بالكاد لوّحته السمرة؛ لطيفات القسما، فانتات المحيّا.

وكان شعرهنّ أسود اللون، طويلاً وحريريّاً. وكانت كلّ واحدة منهنّ تشبه الملكة في مظهرها، بحيث تصوّرت نيفادا

متخضّعات الوجوه وقد وخطهنّ الشيب. كُنّ جميعهنّ يتقلدن عدداً كبيراً من الجواهر. فطلت نيفادا أنّهنّ من أقارب الشيخ، وهنّ ينزلن دائماً في المكان المخصّص للنساء في القسبة.

خلعت إحداهن الحيك الذي ترتديه نيفادا. وإذ رأت النسوة قفطانها الرائع، ذهلنّ وأثار اهتمامهنّ.

كانت الكبيرات من النساء ترتدين قفطاناً موشى كالذي تلبسه هي؛ وأخریات أضفنّ إليه المنصوريّة، وهو قفطان من القماش الرقيق تضعنه فوق الأوّل. وكانت اللواتي ترتدينه تبدين وكأنهنّ جعلنّ عليهنّ دثاراً من الضباب الخفيف اللون.

وأجلست امرأة شبيهاً الشعر نيفادا بالقرب منها، على كنبه واطئة. ثم جاءت امرأة أخرى، أصغر عمراً، ترتدي لباساً بسيطاً وكأنها أمة، وقدمت لها قدحاً من الشاي بالنعناع.

كان الشراب ساخناً ومحليّ، لكنّه روى ظمأها أكثر مما كان فعله أي شراب آخر.

ولمّا فرغت من القدح الأوّل، ملاته لها المرأة من جديد فشربته نيفادا، هذه المرّة، ببطء أكثر، وهي تنظر حولها، مدركة أن القليل من الاوروبيّات مررنّ بمثل هذه التجربة التي تعيشها: أن تكنّ في الحریم!

كانت النساء تستحسنّ جواهرها وترينها جواهرهنّ.

وكان لبعضهنّ عقود ثقيلة من العنبر، ولأخریات رصائع من الذهب والفضّة مطعّمة بأحجار الجمشت المستخرجة من جبال الأطلس الأعلى، وكذلك بأحجار الفيروز، والمرجان وأحجار كثيرة أخرى لا تعرفها نيفادا لكنّها مستخرجة أيضاً من الجوار.

أنهن لا يمكن أن تعبرن أية منطقة من العالم دون أن تلتفتن إليهنّ الأناظر.

كانت اثنتان منهنّ جميلتين بشكل يدير رؤوس الرجال في نيويورك ولندن. وكُنّ ذوات عيون سوداء وسيعة، وأنوف دقيقة، وشفاه لحيمة كما كانت ثقتهنّ بالنفس عظيمة. لم يكنّ يضحكن بهزه شأن الطالبات في نيويورك؛ كما أن مظهرهنّ لم يكنّ يوحي بالخجل، إذ كنّ يحدّقن بنيفادا بوقاحة مثلما كانت تتوقّع.

وكُنّ يبتسمن بسحر ولطافة. ولما حان موعد تناول الطعام تبدّدت مخاوف نيفادا بالرغم من أن الحادثة لم تكن ممكنة إلا بواسطة المرأة التي تتكلّم الفرنسية بذلك القدر من الرداءة.

كانت الإماء الصغيرات تخدمن النساء الجالسات على الوسائد أو الأغطية. وكان الطبق الرئيسي نوعاً من الشوربَاء أو الهريسة ويتألّف من دجاج، ولحم خروف مجفّف، وحمص، وبقدونس، وزنجبيل، وبصل وزعفران. وكان الكل مخلوطاً بارزاً متبّل ومعه طماطم، وخبز عربي وبيض.

شبعن نيفادا تقريباً من قصعتين من تلك الهريسة التي تبتعتها أيضاً حلوى مغربيّة تقليدية مصنوعة من العسل واللوز، لذيدة الطعم، بكل بساطة.

ثمّ جيء بأقداح الشاي بالنعناع المألوف. وما إن انتهين من الشرب حتى نهضت النساء قفزّة واحدة. وظهرت اللثم كالسحر، إذ سرعان ما وضعنها على أنوفهنّ.

ونظرت نيفادا الى المرأة التي تتكلّم الفرنسية مستفسرة - الرقص، قالت لها موضحة. سوف نشاهد الرقص.

- أين؟

كان شرح ذلك غايةً في الصعوبة؛ فاكثفت المرأة بأخذ نيفادا من يدها وبدفعها نحو المشى في أثر الأخباريات. وجدت نيفادا نفسها على مصطبة من الخشب الأبيض تحيط بهلاء مكشوف.

ورأت تحتها عدداً من المشايخ يرتدون الأبيض جالسين على الوسائد، يمدّون أرجلهم على سجّادات صغيرة فاقعة اللون.

وكان تايرون ستروم يجلس وسطهم، على يمين مضيفه! كان مظهره أنوفاً ومتكبّراً، فكّرت نيفادا. وكان يبدو أيضاً ورائحاً للغاية.

كانت تضيء الفناء سماء مزروعة بالنجوم ونار تسطع من موقدين منصوبين في كل جهة من الفناء، تشتعل فيها سعفّ الخيل.

وفجأة، شعرت نيفادا بنقمة عدوانيّة عارمة تعصف بها بسبب المعاملة التي تلقاها: كيف يتجرأ تايرون ستروم على إرغامها، هي، البيضاء البشرة، الأميركية الغنيّة التي تنتمي الى طبقة اجتماعية رفيعة، على استراق النظر إليه عبر شبكية خشبيّة؟

ودون أن تأخذ عواقب عملها بعين الاعتبار، أماطت لثامها وركضت على طول المصطبة وهبطت الأدرج القليلة التي رأتها في إحدى الزوايا والتي تفضي الى الفناء.

لم يلزمها سوى بضعة ثوانٍ لعبور المسافة الخالية التي فصلها عن المشايخ المجتمعين.

وانتصبت امامهم، يتوهج شعرها الاصبه بنيران الموقدين،
وتزخر عيناها بالغضب.

- ايها السادة! صرخت نيفادا بصوت عالٍ. والتفتت إليها كل الوجوه المندهشة. فأضافت نيفادا بالفرنسية:

- لقد جيء بي الى هنا رغم إرادتي. هل يسمح أحدكم بأن يرافقني الى اقرب قنصلية بريطانية أو فرنسية، وسوف أكافئه بالمبلغ الذي يطلبه.

سكتت. وراح المشايخ يتفرسون فيها؛ فخيّل اليها أنهم يفهمون ما تقول. فأضافت:

- انا غنية... غنية جداً... ساعدوني... أرجوكم، ساعدوني وانطفأ صوتها ببطء، بعد أن دوى في أرجاء القناء وانتظرت نيفادا.

هنا، أدار الشيخ حسن رأسه وأسرّ بوضع كلمات الى المغربيّ الجالس بالقرب منه. وتناول شيخ آخر ملتجح يجلس عن يسار تايرون ستروم ليُتمتم في أذنه بضع كلمات أيضاً. كان نظر نيفادا يتنقل من شيخ الى آخر. واعتقدت أن في الجمع أحداً قد يهبّ لنجدها.

عندئذٍ، تحدّث إليها تايرون ستروم بالانكليزية قائلاً:
- لم يفهمك أحد، قال بخسونة. إنهم لا يعرفون سوى لغة البربر. على أن جاري قد قدّم إليّ جملاً وأربع نعاج ثمناً لك وهو يقول إنه يحبّ النساء المحمومات لأنه مولع بضرهين لحملهنّ على الاستكانة.

وشعرت نيفادا بصدمة في قلبها، غير أن نظرها جابه نظر تايرون ستروم.

- هل عليّ القبول بعرضه؟ سألتها. إنه سعر جيّد لامرأة في هذه المنطقة من العالم.

- اواه! كيف تجرؤ على ذلك!
واللحظة، نسيت نيفادا المشايخ، ونسيت أين هي. لم تعد ترى سوى تايرون ستروم. لم تعد تشعر سوى بمعركتها في مواجهته.

- لك وحدك القرار، قال بإصرار. أما أنا، فسيان عندي. ضاق نفسها. وشعرت شعوراً رهيباً بأنه قد يُقدم حقاً على إعطائها للشيخ. وفي ذلك هلاكها بحق.

مع ذلك، استمرّت تحدّق به بكبرياء، وعيناها تتقدان غضباً. لم أجبرت على الرضوخ للأمر. فاستدارت على عقبها وهربت من القناء تصرخ يأساً.

وفيما كانت تصعد الدرجة الاخيرة التي توصلها الى المصطبة، تناهت إليها ضحكات المشايخ.

وانضمت الى النساء اللواتي كنّ ينظرن اليها بهلع. ثم، إرطاماً منهنّ في التهذيب وحتى لا يُشعرنها بالإنزعاج، ركّزن على ما يجري في الاسفل.

ارتفعت أصوات الموسيقى ولاحظت نيفادا أن النساء غيبن أصواتهنّ وتجمعن فوق المشايخ. وفي الجهة المقابلة من القناء، جلس نحو عشرين موسيقيّاً، يرفعون الطبول والطلبات، أو ينفخون في الشبابات.

كانت الموسيقى مضبوطة الإيقاع تماماً. وما لبثت عدة راقصات أن ظهرن في وسط الفناء.

كَنْ يلبسَنَ الموسلين والحريير ويتقلدن الحلى بغزارة. - راقصات تزنيَت(*)، تمتت المرأة التي تتكلم الفرنسية في

أذن نيفادا. إنهن شهيرات ومثيرات للغاية. وتذكرت نيفادا أنها قرأت في أحد كتب تايرون ستروم أن هذه الراقصات قادرات على بذ كل منافساتهن في افريقيا الشمالية المشهورات بحركاتهن المثيرة.

كان هذا الرقص يُشبه «هز البطن» التركي. وكانت الفتيات شبه جامدات في حين تتلوى أجسادهن وترتعش.

كانت الأضواء التي تنبعث من الموقدين تلقي ظللاً سوداء هائلة، مما أسبغ على المشهد غرابة تكاد تكون كئيبة.

وارتفع من إحدى نواحي الفناء صوت إمتزجت نبرته الحادة بالموسيقى.

انتهت وصلة الرقص وبقيت الراقصات في نصف دائرة وفجأة، برزت بينهن امرأة حبست نيفادا أنفاسها لمجرد رؤيتها.

كانت بوضوح فتيةً جداً، هيفاء القوام؛ وشعرها الطويل المحلول مرصع بالجواهر ومزين بالبراقع الزرقاء.

- سوف ترقص «الغدر»، أسرّت المرأة التي تتكلم الفرنسية في أذن نيفادا.

وركعت الراقصة، مغمضة العينين. ثم بدأ الرقص: إنتقل

(*) مدينة في المغرب جنوبي اغادير (م).

ارتعاش المعصمين تدريجياً الى الذراعين، فالعنق، فالرأس، فالصدر، فالردفين، إلى أن تماوج الجسد بأسره.

وبدت كأن لهاً داخلياً يستولي عليها شيئاً فشيئاً، ويتسع وينتشر حتى يلتهمها أخيراً.

ثم وقعت البراقع الزرق وهي ترقص فأدركت نيفادا أن الفتاة عارية الصدر. كانت، وهي تتلوى، مستسلمة جسداً ليئناً لإيقاع الموسيقى: لقد كانت حقاً الشهوة المجسدة.

كانت نيفادا مفتونة، بينما الراقصة تستسلم أكثر فأكثر، وتصير حركاتها أسرع فأسرع، ويتلوى ساعداها كالافعوان، وتفتر شفتاها. كانت ساحرة، مثيرة، محمومة.

وفجأة، انتهى الأمر. بلغت الراقصة قمة حركتها الدائرية، وأوشكت على الوقوع. فسكتت الطبول شيئاً فشيئاً، وحل صمت مطبق مكن كل فرد من سماع دقات قلبه.

وبدا كأن الصمت قد رمى السحر على المشاهدين. وأخيراً،

دعا الشيخ حسن الزغلي بحركة من يده راقصات تزنيَت الى التقدّم. فهجمن إذ ذاك نحو المشايخ، واختارت كل منهن واحداً

ارتمت عند قدميه، حانية الرأس، ضامّة يديها في وضع تقليدي يدل على الطاعة التامة!

ثم شاهدت نيفادا الراقصة وقد باتت وحيدة. وبينما هي

أفتح عينها جاءها الشيخ حسن فأخذ بيدها لينهضها ويقودها الى تايرون ستروم.

رأت نيفادا الإبتسامة على شفثيه، فركضت يخالجها شعور بالكره والاشمئزاز.



رّة جديدة، راحت نيفادا تتأرجح في محفّتها، متسائلةً عمّا إذا كانت ستستطيع النوم في النهاية، كانت تشعر بالإعياء، لأنها لم تعرف الراحة في الليلة السابقة. وهي لما تزل تتقلّب وتتقلّب، منزعبةً من أصوات النساء اللّاتي ينمنّ في الغرفة نفسها.

كانت ترى أمام عينيها، على الدوام، راقصة «الغدرة»، الشّابة وهي تقوم بحركاتها المتموّجة الرائعة.

لم تكن نيفادا تتصوّر يوماً أن تكون رقصةً بمثل هذه الإثارة، والإغراء والفنّة في أن معاً.

فبعد عودتهنّ الى جناحهنّ، بقيت النساء لفترة طويلة تحت تأثير الصدمة النفسانيّة التي سببتها الموسيقى والولع المرّضي برقصة «الغدرة».

ناهيك عن أن اصغر زوجات الشيخ كانت تبكي فعزّت المراة التي تتكلّم الفرنسيّة بكاءها الى الغيرة.

- إنها تحبّ سيّدنا، تمتعت في أذن نيفادا. وعندما تأتي الراقصات، فإنه لا يرسل في طلبها طيلة ليلتين أو ثلاث. تعجّبت نيفادا لكون هذه الزوجة الرابعة، الرائعة الجمال والتي لم يتعدّ عمرها الثمانية عشر ربيعاً، يمكن أن تحبّ الشيخ الى هذا الحدّ.

وبعد التفكير، رات أنّه، في الواقع، الرجل الوحيد الذي اعرفه تلك النساء، وليس لهنّ خيار آخر.

ولما أوت كلّ واحدة منهنّ الى فراشها، لم تستطع نيفادا إلا أن تفكّر في تايرون ستروم وفي الإبتسامة التي أنعم بها على الراقصة الشّابة.

كان وجهها يبرز من الظلال بوضوح ولم تتبيّن فيه نيفادا سوى حركة الشفّتين وما بدا لها وميضاً متقدّماً.

كانت والدة الشيخ قد أحلّت نيفادا في المكان الأكثر راحةً، إذ منحتها موضع الشرف على المرتبة، وهي كنية واطنة مؤلّفة من مجموعة فرش مغطّاة بالمخمل ومرتكزة على دعائم خشبيّة.

كان ذلك المضجّع مريحاً للغاية، بيد أنّ الكرى جفاها. وفي الصباح، شعرت بالتعب كما لم تشعر به من قبل. كنّ قد ذهبنّ جميعهنّ باكراً، إذ أعلمهنّ أحد العبيد برغبة تايرون ستروم في الإنطلاق عند طلوع الشمس.

وتأثّرت نيفادا بوداع والدة الشيخ والنساء الأخريات، لما أسمع به من علامات الودّ.

ونقلت المراة التي تتكلّم الفرنسيّة الى نيفادا تمنّيات رفيقاتها بسفر سعيد، وأملهنّ بعودتها اليهنّ يوماً ما.

ثم، بعد سلامات عدّة، تلمّست فيها الأيادي المضمومة
جبهتها أولاً، فشفتيها فصدرها أخيراً، تبعت نيقاداً خادماً عبر
أروقة متعرّجة حتى القاعة حيث استقبلهما الشيخ، هي
وتايرون ستروم، عند وصولهما. كالعادة، تجاهل الشيخ
وجودها، كما توقّعت. وعندما غادر تايرون ستروم القصر، دعاها
بنظرةٍ منه الى اللحاق به. وكان في انتظارهما حصان وجَمَل. ثم
لحق بهما من تبقى من القافلة عند باب القصبية الخارجي،
وتحرّكت القافلة وسط وداع خدم الشَّيخ وصراخ الاطفال
المنفعلين الراكضين الى جانب الرجال في الصحراء.

وما لبث الهواء البارد الخفيف الذي هبّ عند انطلاق القافلة
أن هدا مع طلوع الشمس التي ازدادت حرارتها حدّة مع كُر
الساعات.

ووصلوا الى منطقة مختلفة تماماً. ترتفع فيها أجراف هائلة
من جانبي وإِ ضيق كثير الحصى تتلوّى فيه درب ضيقة
متعرّجة. لم يكن المكان سوى شعابٍ جافة، ومنحدرات صوانية
ومغاور متآكلة.

وعبروا نهراً قليلاً قليل العمق يسيل ماؤه شريطاً رقيقاً بين
الصخور.

ثم بدأت تظهر التلال الحارقة والمجدبة حيث لا يثبت سوى
لوز البربر.

كانت حركة الجمال المتواترة قد أنهكت نيقاداً، فأسبلت
أجفانها وكادت تغفو عندما توقّفت القافلة فجأة.

وإذ فتحت عينيها، رأت أنهم في معبر تحفّ به أجراف عالية
من الصوّان.

ثم رأت تايرون ستروم يعود بسرعة فائقة من مقدّمة القافلة
متخطياً سلسلة الجمال والحصير. ولم تشكّ في أنه كان قد تقدّم
القافلة بكثير. واتخذ مكاناً بالقرب منها.
أعطى أمراً وجيزاً للجمال الذي أمر بدوره الجمال، فأطاع
وبرك على مهل مُطلقاً النخير إياه. وتوجّه تايرون ستروم الى
نيقاداً قائلاً:

— إنزلي وأسرعني!

نظرت اليه بدهشة ثم فكّرت في أنه قد يكون لديه شيء آخر
مزمع يودّ أن يدلّها عليه، كما حدث من قبل، عندما قادها
أروية جثة الرجل المقتول.

أرادت أن تجادل، وتعرض، لكنّه سبقها الى إعطاء الأوامر
الجمال. والواقع أنّ الرجل بادر الى نزاع المحفّة عن ظهر
الجمال، ما إن وضعت رجلها أرضاً.

ووقفت نيقاداً على الدرب الكثيرة الحصى تراقبه دون أن
يهم ما يدور. وفجأة، أمسك تايرون ستروم بمعصمها.

كان قد ترجّل هو أيضاً واقتيد حصانه جانباً.

— ماذا يحصل؟ سألت نيقاداً.

— تعالي! سوف أشرح لك الأمر فيما بعد.

دفعها الى الأمام وهو يتكلّم، واقتادها بين الصخور. كان
أبها أن تسرع فتأذت قدماها ان كانت تنتعل بابوجاً.

نعثرت فأطلقت صرخة صغيرة.

وأثت نبرة الإستخفاف في صوته الى ازدياد الشعور بالخجل
في قلب نيقادا.

- أنا... أنا أسفة، تمتعت.

- وقد يكونوا أيضاً لصوصاً يبحثون عن قافلة ينهبونها،

الأساف. إن عصابات المغيرين بقصد السلب كثيرة؛ وقد

اصادف، لسوء حظنا، واحدة منها.

وبينما كان يتكلم، سحب مسدسه من تحت ثوبه الأبيض.

- هل تعتقد... بأن عليك القتال؟

- إذا كان لا بدّ منه. سوف تكون حصيلة ذلك دماً وقتلي،

الأ أنك سوف تجددين ذلك ممتعاً.

ونظرت نيقادا الى أسقل. كانت القافلة تعبر ممراً جبلياً

هنيئاً بين حاجزين صخريين داكنين.

- أرجوك... لا تقلّ هذه الكلمات من جديد، قالت مدافعة

بصوت خافت. لقد أنزلت بي قصاصاً عنيفاً لما فعلته بدافيد...

على بدون قصدٍ مني. أنا لن أنسى أبداً.. ذلك الهيكل العظمي

الذي شاهدناه البارحة.

وعلم تايرون ستروم من نبرة صوتها أنها صادقة في ما

القول. ثمّ انه أحسّ لقربه منها بالإختلاجة الخفيفة التي

أبتاحت الفتاة إذ تذكرت الحدقتين الفارغتين والأسنان المجردّة

من اللحم.

غير أنّ الوقت لم يكن للمناقشات. فالواقع أنّ عدداً كبيراً

من الخيالة بأنّ في البعيد، يحملون بنادق طويلة الأستون

والطابير خلف ظهورهم برانسهم التقليدية.

ترك معصمها، وفي عجلة من أمره، رفعها بين ذراعيه دون
إعطاء أي تفسير.

لفرط دهشتها، كانت عاجزة عن قول أي شيء، عندما

وضعها خلف جلاميد صخرية، بعد أن تسلّق هو صخرة وعرة

ثمّ جثا ليراقب القافلة في الوادي، تحتها.

تبعث اتجاه نظره فرأت أن المحفة التي كانت تسافر فيها لم

تفكّك فحسب؛ بل عمد الجمال الى تحطيمها، وكان في تلك

اللحظة يلقي بقطعها وراء الصخور بعيداً عن الأنظار.

وعندما انتهى الرجل من ذلك، أوقف الجمل وتحركت القافلة

من جديد، بهدوء، فيما كان ولدٌ يقود حصان تايرون ستروم

وقد وُضع على ظهره بعض المتاع.

- ماذا يحدث؟ هل يذهبون دوننا؟ سألت نيقادا.

والحال أنه لم يكن بإمكانها أن تفهم معنى هذا المشهد ولا

لماذا تصرّف تايرون ستروم بهذه الغرابة. وظنّت لوهلة أنه إن

يجيب. بيد انه حزم أمره في النهاية.

- ثمّة خيالة يُقبلون نحونا.

- خيالة؟ من هم؟

- لا أعرف بالتحديد، الآ أنني لا أريد المخاطرة.

- لماذا؟ هل تعتقد أنهم قد يهاجموننا؟

- قد يكونوا أتباع الشيخ الذي قدّم البارحة عرضاً بشأننا،

قال بخشونة. فالمرأة البيضاء ألّهة بحق في هذه المنطقة. حتى

انه ضاعف عرضه في وقت لاحق.

وعندما صار هؤلاء في مواجهة القافلة شدّوا بعنف أعناق جيادهم فارتدّت الى الخلف على مؤخّرتها، وفق أسلوب طوره العرب خلال هجماتهم الشرسة ومهرجانات الفروسية.

ثمّ راح رئيسهم يتحدّث الى الرجل الذي يقود القافلة. فأنصت تايرون ستروم بدقة. وحيال التعبير المُجم الذي ارتسم على وجه رفيقها، فقد تملك نيفادا دُعر لا مثيل له.

إقتربت منه دون تفكير تقريباً؛ فشعر بها ترتعش بتشنّج. كان يُمسك المسدّس بيده اليمنى، فمرّز يده اليسرى حول كتفي نيفادا.

وبالرغم من انها لم تعرف تماماً إذا كان الغرض من هذه الحركة حمايتها أو منعها من الإتيان بأيّة حركة قد تثير الإنتباه، فقد شعرت بتعزية غريبة.

من غير المجدي أن تحاول أن تكون امرأة مستقلة في مثل هذه الحالة، قالت في نفسها. حتى انها رغبت في المزيد من الإلتصاق بتايرون ستروم وإخفاء وجهها في صدره كي لا تشاهد التراشق بالرصاص.

كان قلبها يخفق في صدرها متسارع الضربات. وكانت تنتظر في كلّ لحظة أن ترى رجال القافلة يقعون برصاص الخيالة فيكون تايرون ستروم مُجبراً على النزول.

ولكنّ لا. فقد انتهت المحادثة التي شارك فيها خيالة عدّة. وبعد أن أطلقوا صرخة بدت في أن معاً كإشارة وكتعبير عن حماس، إنحدروا بسرعة مجنونة في اتجاه القسيبة.

وشعرت نيفادا بتنهيدة الإنفراج التي صدرت عن تايرون ستروم، تنهيدة أفلتت بهدوء من شفثيه المنفرجتين. واتاحت لاسمه الإسترخاء.

هل... ذهبوا؟ تمتعت. نعماً. قاصداً. وبنينا رقصنا بعداً. ذهبوا يبحثون عنك، أجب. لقد كنتُ على حق، فالشيخ والبارحة من دون لثام وقرّر أن تكوني من عديد حريمه.

أنا أسفة... سامحني. لقد أدركت الآن مدى جنوني، قالت لاهتة.

لم يكن تصرّفك جنوناً فحسب، بل كان غايةً في الخطورة. أعالي. ينبغي علينا أن نخرج من هنا. ساعدها على النهوض ومشى أمامها على المنحدر الصّخري.

ولما أدرك القافلة، توجّه بالحديث إلى الرجال. نُزعت البقجة عن ظهر حصانه الذي أحضره أحد الاولاد بيديه. ثم قال تايرون ستروم لنيفادا:

بما أنّ رجال الشّيخ لن يلبثوا أن يكتشفوا عدم وجودك القسيبة، فإنه ينبغي علينا نحن الاثنين أن نُسافر دون مواكبة. إنها مجازفة علينا ركوبها.

ولما نظرت إليه نيفادا مستفسرةً، رفعها بين يديه ووضعها على صهوة جواده.

إمتطت الجواد من أحد جانبيه، كما هي العادة عند نساء البلاد. قفز خلفها وأحاطها مجدداً بذراعه اليسرى في حين أمسك العنان بيده اليمنى.

ثم أصدر بضع أوامر لدليل القافلة. وقدّرت نيقادا بأنه
أوصاه بالإسراع في بلوغ مقصده. بعد ذلك قسوتها
في النهاية، همز جواده. وبخطي وثيقة، خرج الجواد من
الممر الضيق المزروع بالحجارة الغليظة والذي يؤدي إلى سهل
صخري غير مستوية أرضه. وبعد صمت طويل، سألت نيقادا
- هل المكان بعيد؟
- نعم، المكان بعيد نوعاً ما.
- وهذا يعني أن رجال الشيخ... قد يلحقون بنا عندما
يتبين لهم أنني لست في القصبة؟
- قد يحصل هذا.
- وماذا... بعد ذلك؟
ساد من جديد صمت طويل. وأخيراً، قال تايرون ستروم
- ثمة خياران: إما أن تذهبي معهم، أو أقتلك بيدي.
لم تتمكّن نيقادا إلا من الإلتفات نحو رفيقها.
- أواه، لا!... لن يكون ثمة خيار... فأنت تعرف تماماً أنني
أفضل... الموت! صرخت وهي تخفي وجهها في صدر تايرون
ستروم.
- كنت أشك في ذلك. ولكن، بقليل من الحظ وبمساعدة الله
سوف نصل إلى طفراؤوت قبل أن يتمكّنوا من إدراكنا. وهناك
ننعم بالأمان.
ثم تمتعت نيقادا بعد صمت، وهي لا تزال ملتصقة بكتف
تايرون ستروم،
- أنا أسفة... بكل صدق... فانا لم أكن لأفهم أن بإمكان

الشيخ أن يتوهم... أشياء كهذه بشأني... لم أكن أطلب...
سوى النجدة.
- وهل ظننت حقاً أنهم سوف يهرعون لمساعدتك؟ سأل
تايرون ستروم وفي صوته نبرة هزة.
- لقد قرأت في كتبك أنهم ليسوا... متحصّرين إلى حدّ كبير،
والكن... لجهلي، لم أكن أعرف ما يعني هذا الأمر.
- ليس أنهم على درجة غير عالية من التحصّر، بل الواقع
أن النساء في نظرهم قيمة ضئيلة؛ إنهن موجودات للترفيه عنهم
فحسب. أما أن يكون عندهن شعور بشأن اختيار من سيصير
سيدهن أو إيثار أحدهم على آخر، فإن ذلك احتمال لا يأخذه
أحد بعين الإعتبار.
لم تجب نيقادا إذ قد يكون تايرون ستروم يشاطرهم وجهة
النظر تلك؟ فهو لم يُعر مشاعرهما أي اهتمام، فكُرت في سرّها.
مع ذلك، فقد كان الآن يخاطر بحياته وحيياة رجال آخرين
لإنقاذها من عواقب غيابها. ذاك أنها كانت تعرف تماماً أنه في
حال حصول معركة ما، فمن السهل جداً على الخيالة أن يُردوا
الجمالة قتل؛ فضلاً عن أن مسدس تايرون ستروم لن يتمكّن
من حمايتهم طويلاً.
وتساءلت عما سيشعر به في حال أُجبر على قتلها كما
وعدها. لكنّه، بدون شك، قد أقدم في السابق على قتل الكثيرين؛
وإن يؤثر فيه، على الأرجح، قتل امرأة أخرى.
كان الإضطراب قد نال من نيقادا كما لم يحصل معها من
قبل، تحت تأثير كل تلك الأفكار المشوّشة المتزجة بالقلق.

على أن ما شعرت به وعانت منه انتقل بشكل ما إلى تايرون ستروم، ذاك أن ذراعه شدتها فجأة إليه وصار صوته أكثر مدوية:

- عندما يُحرق الخطر بنا، علينا ألا نتوقع الأسوأ أبداً. إن هذا لمبدأ ممتاز.

- هذا... صعب، قالت بصوت مخنوق.

- أعرف ذلك، إلا أن الحظ لم يخذلني قط في الماضي

وأرفض التفكير في أنه سيتخلى عني اليوم.

- أمل ذلك، أنا أيضاً، تمتعت. وأنا لا أريد... أن أموت.

- الحق يُقال إنني لا أُرغب أنا أيضاً في الموت. فأمامي

أشياء كثيرة أقوم بها.

- من جهة... كتابك الذي تريد أن تنهي تأليفه.

- تماماً! - وبدا لها أنه ابتسم فوق رأسها وهو يضيف: -

دون أن تأخذ في الاعتبار بأنه في حال نجاتنا، فسيكون لهذه

الغامرة مكان مميز في مذكراتك.

- أشك في أن يود أحدهم قراءة مذكراتي يوماً ما.

- بالتأكيد، فذلك مرتبط بالمغامرات التي ستعيشينها في

الاستقبل.

وإذ سمعته يتكلم بهذه الطريقة الموضوعية، شعرت نيفادا

بالقلق يتراجع في داخلها. حتى أنها تمكنت من استعادة

صوتها الطبيعي.

- وبعد ذلك، أظن أن السرور سيتمكني بأن أبقى في منزلي

الشفيل بالتطريز.

لم تتمكّن سوى من إغماض عينيها والاستسلام بين ذراعي تايرون ستروم بينما كان الجواد يتقدم أسرع مما ظننته ممكناً على تلك الأرض الصخرية وغير المستوية.

«أنا بمأمن في الوقت الحاضر»، قالت نيفادا في سرها، «أنا بين ذراعيه وسوف يتولى حمايتي... قدر المستطاع».

حاولت تقدير المسافة التي قطعها منذ تركا القصبية. وهي

قصيرة طبعاً، إذا أخذ بعين الإعتبار بطء القافلة.

وباستطاعة الخيالة بلوغ القصبية في ربع ساعة من الزمن،

بفضل جياهم العربية الصغيرة الجموحة. لقد شعرت نيفادا

بقلبها يخفق بصخب لهذه الفكرة. بيد أنها، بالرغم من هلعها،

لم تكن قادرة حقاً على تصوّر ما تخشاه.

هل من الممكن حقاً أن تموت هي، نيفادا فنان أريزون

الأمريكية الغنيّة المدلّة، في هذه الصحراء الكثيرة الحصى من

دون أن يدري أحد بما حصل لها؟ عندها أدركت كم سيكون

موتها عديم الأهمية.

كم من الأصدقاء سوف يبكون غيابها عنهم؟ كم من الناس

يحبونها إلى حدّ ذرف دمعته واحدة عند سماع خبر موتها؟

وللمرة الأولى في حياتها، رأت نيفادا نفسها كما هي، إذ

تنفصل عن ثروتها وتتجرّد من الهالة التي يضيفها عليها

جمالها.

فلو أنها ماتت كالرجل الذي دلّها عليه تايرون ستروم

البازحة، لتفترت لها الكواسر لحمها الذي يغطي العظام،

ولأمست مجرد هيكل عظمي يصفرّ تحت الشمس!

في قلب سلسلة من الجبال الهائلة، وبعيداً عن باقي المغرب، كانت طفراؤوت كمثل ملجأ في مامن من العالم العدائي.

كانت الهضاب الصوانية العالية تحيط بالمدينة كأذرع واقية. وارتفع جوانبها الشديدة الإنحدار بضع مئات من الأمتار، جاعلة من المدينة نوعاً من القلعة الطبيعية.

كان ذلك فاتناً بحيث تساءلت نيقادا إن كانت لا تحلم فيما كانا يعبران الوادي.

وبدا أن تايرون ستروم سَبَرَ فكرتها:

- إن هذا الوادي يضاهاي نوعاً ما بعض الأودية الغربية بلنتتها والعجيبة بخصبها التي قِيضَ لي مصادفتها في الهملايا.

لها تاجدين حضارة عمرها آلاف السنين، تكتنفها الأسرار، وتختلف جذرياً عن تلك التي يمكن مشاهدتها في الأجزاء

الأخرى من المغرب.

- أخبرني المزيد، صرخت نيقادا بحماس.

- فيما بعد، أما الآن فسوف نذهب إلى منزلي.

هز برأسه، وكان الجواد يتقدم الهويني في الطرقات الضيقة. وما لبثا أن وصلا بالقرب من قسبة وردية اللون

تحيط بها أشجار اللوز مُسبغةً عليها منظراً خيالياً حرياً بقصور الأساطير.

حالا، فُتحت لهما الأبواب، وما إن ظهرا حتى تهافت الخدم برحبون بتايرون ستروم. كانت الأوجه كلها مبتسمةً وبدا أن

التحيات لن تنتهي أبداً.

وتحدّث إليهم تايرون ستروم بلغتهم ثم دخل القسبة.

- قد تجدين من الأجدى تعلم فن الطبخ. وخالت لوهلة أنه يهينها إلا أنها سرعان ما اكتشفت أنها ينكدها.

- سوف أتلقّى بعض الدروس بدون شك... هذا إذا عدنا بعدُ إلى الحضارة.

- في الوقت الحاضر، ليس عندي شيء متحصّر للغاية أقدمه لك. بالمقابل، فإننا نشرف على ملجأ أمين.

كان في صوته رنة انتصار جعلتها ترفع رأسها. فرأت على بُعد ألف وخمسمائة متر إلى الأمام هضبة من الصوان الوردية

ترتسم في السماء وترتمي على أقدامها أشجار نخيل ضبابية الإخضرار.

- طفراؤوت! قال مهلاً.

وإذ نظرت إليه وهو يتكلم، شاهدت ابتسامة على شفطيه. للانتصر مرة جديدة، قالت في نفسها.

منذ ذلك الحين، بدا لها قلقها سخيلاً، وكذلك مخاوفها. كان عليها أن تعلم أن تايرون ستروم ينجح دائماً في كل ما يُقدم

عليه.

ومع اقترابهما، شاهدت نيقادا أشجار الزيتون واللوز تمتزج بأشجار النخيل، وتحيط بمدينة صغيرة وردية الأسوار والبيوت.

كان هنالك أيضاً قسبات عدّة صغيرة عرفتها من أبراجها المسنّنة، وما لبثت أن اكتشفت أن طفراؤوت تمتدّ على مدخل

وإد في غاية الخصب والجمال.

والحق يُقال إنها كانت منزلاً أكثر منها قلعةً. ترَجَّل تايرون
ستروم أمام بابٍ آخر. ثم حمل نيقادا ليضعها على الأرض
الوردية. ثم حمل نيقادا ليضعها على الأرض
ودخلا إلى المنزل فوجدت نيقادا نفسها في قاعات مزخرفة
بأجمل ما ابتدعه الفن المغربي. فسيفساء، طناقس ونسائج من الكتان الغليظ، والكل أحسن
وأجمل من كل ما مرَّ في بالها. ناهيك عن أن الدواوين الضخمة
المغطاة بالوسائد الحريرية وكذلك مراوح التهوية المعلقة في
السقف، كانت تُعدُّ برفاهية استثنائية، على الطريقة الغربية.
دعا تايرون ستروم نيقادا إلى الجلوس على أحد تلك
الدواوين، وسرعان ما وضع أحد الخدم أمامها قديحاً من
الشاوي بالنعناع. وسألت تايرون ستروم بلغة العيون فقال لها مبتسماً:
- بإمكانك نزع الحَيْكِ واللُّثام هنا. إفعلي كما يحلو لك.
فسارعت نيقادا إلى رمي ثوبها الأبيض إلى الخلف وخَلَعَتْ
لثامها عن أنفها. وسقط شعرها المحلول على كتفيها، متوهجاً في النور الخفيف
الذي يتسلل من النوافذ المُسدَّلة الستائر. وفكرت في أنها تبدو مهملة المظهر بعد كلِّ ما عاشته، لكن
الأمر لم يكن يهَمُّها في الوقت الحاضر. تناولت قديح الشاي بالنعناع وشربته بلذة فائقة، مكتشفة
فجأة أنها في غاية العطش، ليس فقط بسبب الرحلة الطويلة
على ظهر الجواد، بل أيضاً بسبب الخوف الذي عانته.

خرج تايرون ستروم من الغرفة فنظرت حولها.
أن يكون هذا المنزل ملكاً لتايرون ستروم أمر بدا لها عجيبياً،
لكنها، بعد النظرة السريعة التي ألقتها على الوادي، فهمت أن
شخصاً محبباً للإنفراد والامكنة الغربية إنما يشتهي السكن في
المغراووت.
«بإمكانه العمل هنا»، قالت في سرِّها.
وعاد إليها، فسألته بعد أن علمت بقلقه على القافلة:
- هل ثمة أخبار جديدة؟
- لقد أرسلت العديد من رجالي لمواكبتها إلى هنا.
- أو تخشى على مخطوطاتك؟
- وكيف تعرفين ذلك؟
- أين صرت في مشروعك؟
- في منتصف الطريق تقريباً. ويزعجني تماماً أن أعود إلى
المحلة البداية.
- لا يسعنا غير أن نرجو عدم حصول أي حادث.
- ليس الرأي الذي تبديه رأي عدوِّة. فالأحرى بك أن
تلمني رؤيتي مغتاضاً من فقدان وثائق ثمينة في نظري.
- ربِّما لستُ على ما أبدو من الأنانية، أجابت نيقادا بسرعة
وحماس قبل أن تفهم أنه يعمل على إغاظتها.
- واين تشتغل؟ سألت أيضاً.
دلَّها على طاولة لم تكن قد لاحظتها بعد، في الطرف الآخر
من الغرفة.
توجَّه إليها وأزاح بعض الستائر المطرزة بمهارة، كاشفاً

وجود نافذة خالية من الزجاج، غاية في الإتساع، تُطلّ على الوادي.

لحقت نيفادا بتايرون ستروم. وتأمّلت في المزروعات والأشجار المتفتحة، والأزهار، والمنازل الوردية اللون والهضاب المتوردة المتلألئة، ينبثق منها بريق غريب.

وهنا وهناك، كانت ضياع صغيرة جداً تتفتّح بين صخور هائلة؛ وتختفي بيوتها تقريباً لتطابق لونها مع لون المنظر.

- ما رأيك في هذا الوادي؟ قال تايرون ستروم.

- إنه رائع!

- هذا ما دار في خلدي عندما أتيتُ إلى هنا للمرة الأولى.

فسرعان ما وجدتُ هذا المكان عجيبياً ومدهشاً.

- هذا المكان شبيهه بعالم الأحلام. أضافت نيفادا.

ولمّا التزم الصمت، أكملت:

- أترأه موضوع كتابك؟

- نعم.

- هل يمكن أن أساعدك في شيء؟

- في تأليف كتابي؟

- بالتأكيد لا! بل بإمكانني نسخ ما تكتبه. فلطالما سمعتُ

بأنّ المؤلفين يكتبون عدّة نصوص قبل نشر مؤلفاتهم.

- إنه اقتراح جيّد، بيد أنني أخشى ألاّ يسليكَ الأمر أبداً.

- لسوف ينتابني الملل أكثر، إذا لم أفعل شيئاً، بالرغم من

أنني أشعر في الوقت الحاضر بالرغبة في الجلوس هنا أربعاً وعشرين ساعة متتالية أتأمّل المنظر.

وابتسم تايرون ستروم. فصمت يمتدّ ساعة.

- أفهم أن يكون المنظر غذاءً للفكر، قال، ولكنني اعتقد أنك

بإعطائك ثياباً بديلة. فأرجو أن يُناسبك القفطان الذي سيأتون

به. على كلّ حال، بإمكانك غداً شراء ما يحلو لك.

تملّكت نيفادا الدهشة لكنّها لم تنبس ببنت شفة. بل اكتفت

بالحاق به إلى غرفة فاخرة تقع في الطابق نفسه وتشرف نافذتها

أيضاً على الوادي. وكما العادة في المغرب، كانت النافذة خالية

من الزجاج. في المقابل، كان هناك مصراعان من الخشب يمكن

إغلاقهما حين يكون الطقس بارداً.

كانت الغرفة واسعة ومريحة، وهتفت نيفادا:

- أنا متأكّدة من أنّها غرفتك. ولمّا كنتُ زائرة غير مرغوب

فيها، فإنني لن أحرمك منها مهما يكن من أمر.

ابتسم تايرون ستروم، إلّا أنّها شعرت بأنّ اهتمامها بعدم

إعاجبه يدهشه.

- أوكد لك أنّني أستقبل زوّاري هنا، قال. إنّ غرفتي تقع

إلى جانب هذه، وأعدك، طالما أنك موجودة في حمى القصبية،

بالأ يقدم أحد على خطفك. ولا سرقتك. قد لا تلاحظين ذلك،

لكنك في حراسة جيّدة.

ونظرت إليه نيفادا بقلق.

- هل تعتقد أنّ رجال الشّيخ مازالوا يبحثون عني؟

- قد لا يرغب الشّيخ نفسه في التخلّي عن المطاردة، أجاب

تايرون ستروم. بيد أنّ لسكان طفراووت قانونهم الخاص. إنهم

ليسوا قبيلة، بل شعب متميز تحيط الجبال بتخوم أرضه.

- ومن هم هؤلاء القوم، إذا كانوا لا يؤلفون قبيلة؟

انفجر تايرون ستروم ضاحكاً.

- إنه سؤال يطرحه المغربيون أنفسهم منذ قرون. فأمل

طفراوت أقدم شعوب المغرب وانقاهم وأرسخهم أصلاً.

وإذ قرأ الإهتمام في عيني نيفادا، أكمل قائلاً:

- إنهم من البربر التجاؤا إلى هذه الجبال منذ اثني عشر

قرناً تقريباً هرباً من الغزاة.

قد يُظهرون الكثير من العدائية خارج أرضهم وهم

تمسكون بواديهم أكثر من كل شيء. إنهم عاملون نشطون

يحتفظون بنفسهم لأنفسهم، كما يقول الإنكليز.

أتجه تايرون ستروم نحو النافذة وأضاف متأملاً الوادي:

- لو ذهب أحد السكّان المحليين لجمع ثروة في مكان آخر

من المغرب، لعاد دوماً إلى بلده ليتزوج، ويبني أحد المنازل

الورديّة المستوية السطح التي تُشبه القلعة إلى حدّ ما. وهناك

يؤسس عائلته ويعيش سعيداً، كما في جنّة صغيرة.

وظهر في صوته شيء من الغيرة، فسألته نيفادا بعد صمت

- وهذا ما توّد القيام به أيضاً؟

- ربّما، عندما أصير طاعناً في السنّ وعاجزاً عن الإستمرار

في حياة المغامرات التي أعيشها، أجب باستخفاف.

وقفل راجعاً.

- ... لقد استخدمت امرأة لتهمّ بك. وأخشى تماماً ألا

تتمكّني من التفاهم معها سوى بالحركات.

وتبيّن لها أن الخادمة شابة فاتنة بحق. خجولة إلا أنها

راغبة في نيل الإعجاب؛ فأحضرت ماء ساخنًا وعدداً من

القفاطين. كان أكثرها صغيراً جداً، بيد أن نيفادا عثرت على

واحد يلائمها، كان موشى بالذهب، ولونه غايّة في الروعة. دسّت

رجليها في بابوجين جديدين، وإن رأت أنه من الغباء عدم تقلّد

الجواهر التي أعطاها إيّاها تايرون ستروم، فقد قرّرت التزيّن

بها.

نظرت إلى صورتها في مرآة غرفتها. ولمّا شاهدت شعرها

الاصهب منتثراً على كتفيها، فكّرت في أنه من الصعب إيجاد

ثوب يُبرز جمالها بهذا الشكل، حتى في أفخم محلات باريس.

كان القفطان الطويل من الحرير الناعم يقولب جسدها،

مبرزاً نحافتها عوضاً عن إخفائها.

ولم يكن في وسع نيفادا إلا أن تتصوّر الأثر العميق الذي

قد تُحدثه في نفوس رجال نيويورك وباريس ولندن، أولئك الذين

اسرفوا في اطرائها واضعين قلوبهم تحت قدميها.

وإنّه لأمر مؤسف ألاّ أجد أحداً أُثير إعجابها! قالت

متهنّدة.

ذاك أنّها لم تكن تخدع نفسها بمشاعر تايرون ستروم

نجاهها. فقد كان واضحاً على الدوام: كان يحتقرها وينعتها

بالساحرة!

لكن، بالرغم من أن ذلك أغضبها، فقد فهمت في الوقت

الحاضر أنّ إهانته لها تجد ما يكفي لتبريرها.

ومرّة أخرى، تراءى لها الهيكل العظمي تحت الشَّمس

المحرقة، واستمعت إلى صوتها وهي تقول لدافيد إنه قد يكون من المتع رؤية رجل ميت.

لو لم يتصرف تايرون ستروم بمثل تلك السرعة، ولو لم يشاهد رجال الشيخ قبل أن ينقضوا على القافلة، فلربما وقعت الآن دزينة من الضحايا أو المحتضرين بين الصخور، ولربما قضت هي أيضاً بفضل آخر رصاصة في مسدس رفيقها. وأشاحت نيفادا بنظرها عن المرأة كما لو أنها لم تعد، فجأة، تحتمل رؤية وجهها.

«كيف لي أن أعلم بوجود بلاد لا يستطيع من يقيم فيها من الرجال العيش إلا والبندقية في يده، وحيث الشيء الأهم أن يبقى الإنسان على قيد الحياة؟ فكّرت في سرّها. فهي لم تكن قد أدركت بعد كم هي الحياة ثمينة، وكم من الصعب أحياناً المحافظة عليها.

وكان يبدو لها الآن أنها خاطرت بشيء لا يقدر بثمن وتفوق قيمته كل شيء: الحياة، مجرد التنفس والوجود.

كان تايرون ستروم غريباً بالنسبة إليها تقريباً، إلا أن دافيد أخبرها عنه بالاحترام الذي يسبغه شاب على بطل.

كانت نيفادا تعرف ببهايم أنه عاش مغامرات عديدة خطيرة، وغالباً ما أظهر فيها قدراً كبيراً من الإقدام. بيد أنّ تايرون ستروم نفسه لم يكن يتحدث عن ذلك؛ فقد كان سرّه.

ليس عجباً، فكّرت في نفسها، أنه، وهو الذي وجد نفسه مرّات عدّة في أوضاع شائكة، أن يرى من المعيب والمثير للغضب أن تُقدم امرأة على الإستخفاف بالموت أو القول بأن

لثة متعة في رؤية ميت. « لا، أنا لست كذلك، تمتعت نيفادا في سرّها. إلا إذا...؟»

ولما انضمت إلى تايرون ستروم في الصالون، شعرت نيفادا بشيء من الإنزعاج.

كان من السهل عليها الإستلقاء بالقرب منه في واحة، وهي لترتدي ثياب أهل البلد. بيد أنه كان من الصعب عليها تناول الطعام معه على انفراد، وهي لا ترتدي سوى قفطان من الحرير، محلولة الشّعر: هذا الموقف كان يجعلها تعي نفسها بشكل غريب.

كان الطعام جاهزاً. فُقدّم إليهما على طاولة منخفضة، وجلسا معاً على ديوان مريح تزخر فيه الوسائد الحريريّة.

وإذا كانت نيفادا منزعجة، فقد كان تايرون ستروم، من جهته، مرتاحاً للغاية.

- أشعر بأنك لا تمانعين في شرب كأس من النبيذ، قال لها، إنه مشروب لا يُقدّم لك أبداً في منزل مسلم. لكننا هنا بمنأى من أيّة قيود دينيّة، فأمل أن تتذوّقيه بسرور.

كان النبيذ لذيقاً بحق، وربطته نيفادا في مخيلتها بالشّمس التي تسطع في الخارج.

كان الوقت قد تخطّى الظهر والحرارة شديدة. وكان تايرون ستروم قد أرخى الستائر على النافذة المجرّدة من الزجاج، تاركاً الغرفة في ما يشبه الظل النديّ.

كان الطعام المغربيّ شهياً. وكانت نيفادا جائعة إلى حدّ أنها

أكلت بصمت إلى أن جيء بالحلوى. فاعتدلت في جلستها،
وقالت:

- لا شك في أنني كنت شرهة في الأكل. إعذرني.
- وأنا كنتُ جائعاً أيضاً. إنَّ الإنفراج بعد الخوف لَفَاتِحٌ
للشهية ممتاز.
- لقد خفتُ... للغاية.
- لاحظتُ ذلك.

لقد تذكر، بدون شك، كيف راحت ترتجف عندما دلف رجال
الشيخ إلى الوادي. لذلك شعرتُ الآن بالخجل لأنها لم تبرهن
عن مزيد من الشجاعة.

- ربما تفهمين الآن أن المرأة، مهما كانت متحررة، بحاجة
إلى حماية رجل متى مرّت في وضع كالذي وجدتِ نفسك فيه
اليوم.

- تعرف تماماً أنني فهمتُ ذلك، أجابت نيقادا. فلا حاجة
بك لأن تجعلني أكثر تواضعاً مما أنا عليه!

- متواضعة؟ هل أنتِ حقاً متواضعة، يا نيقادا؟ إنها آخر
صفة كنتُ أظنُّ أنك تتحلّين بها.

- أعرف رأيك في تمام المعرفة. وعذري الوحيد هو جهلي
المطلق. فمن السهل حقاً أن نكون شجعاناً عندما نجهل الأمر
الذي نتحدّث عنه. كذلك، قد يكون من السهل عدم فهم شعور
الأخرين، عندما لا يتأبنا الشعور نفسه.

- إنه اعتراف نبيل، قال تايرون ستروم بهدوء.
ثم نهضت نيقادا عن الديوان وأتجهت نحو النافذة.

أسأزاحت الستائر لتتنظر إلى الخارج. كانت الشمس تعمي
الأيصار تقريباً، وكذلك الهضاب الوردية.

- كم من الوقت سنمكث هنا؟ سألت.
- هذا رهن بالظروف. هل أنتِ في عجلة من أمرك؟
- ليس في الوقت الحاضر.
- أه! ولماذا؟
- لأنّ... حبّ الإطلاع يتملّكني. الإطلاع على هؤلاء القوم،
هذه الأمكنة و...

- وحبّ الإطلاع على ماذا أيضاً؟

- إذا كنتِ تصرّ على الحقيقة... عليك أنت؟

- كيف؟

- أودُّ أن أعرف لماذا تذهب إلى هذا الحدّ في ما يتعلّق بي،
لماذا تلعب لعبة الإله. أواه! لإنقاذ دافيد، بالتأكيد.

ولكن، كان بإمكانك أن تقوم بذلك دون اصطحابي إلى هذا
المكان السري الذي يبدو مهماً للغاية في نظرك.

تكلمت بصوت ثابت. وعندما صممت، بدا أن السكون الذي
ساد يحمل نكهة معينة.

ولما أحجم عن الجواب، أسدلت نيقادا الستائر ووقفت
راجعةً. كانت الشمس قد أعمتها في البداية، فلم تتمكّن من
رؤية أيّ شيء. ثم شيئاً فشيئاً، راته لا يزال مستنداً على
الديوان ويحدّق بوجهها بإمعان.

وبهدوء، إقتربت ووقفت أمامه، وفي عينيها الخضراوين
المناقضتين مع بياض بشرتها، علامة استفهام واضحة البلاغة.

والصفاء، محاطةً بجمال يخاطب لا العقل فحسب، بل الروح أيضاً.

وأمامها على مكتب مُرتَجَل، توزَّعت مخطوطة تايرون ستروم تقوم بنسخها على ورق عادي.

لما قال لها إنه يُؤلِّف كتاباً تاريخياً، توقَّعت قراءة نصٍّ عويص بل ربّما صعب الفهم، شبيه بالنصوص التي قرأتها في اليخت. لكنّها أخطأت في ظنّها واعترفت لنفسها، بعد تفكير، أن تايرون ستروم لا يمكن أن يكتب سوى أشياء مبتكرة، حسب شخصيّته المميّزة.

كان يضفي روحاً على القبائل التي يتحدّث عنها، يبعث في أفرادها الحياة، بمشاكلهم وقضاياهم. تحت ريشته، كان الرجال والنساء يبكون ويضحكون، ويواجهون هزائمهم بشجاعة. بعد كلّ صفحة تنسخها، كان اهتمامها يزداد ليس فقط بالبربر، بل خصوصاً بالكاتب الذي كان مدعاة لفضولها أكثر فأكثر.

فلطالما بدا تايرون ستروم في نظرها قاسياً ومستخيفاً. والحال أنها اكتشفت بأنه يتحلّى، بالإضافة إلى روحه المرحّة، بمقدرة على الشفقة والتفهم تجعل من النص الذي يكتبه نصّاً مؤثراً وغالباً ما كانت نيقادا نفسها تتأثّر بذلك وتبكي دونما قصد. لقد أدركت من قراءة المخطوطة وكذلك من الحادثات العديدة التي كانت لها مع تايرون ستروم أنه يملك موهبةً بالتأكيد، لكنّه أيضاً رجل غامض. كانت في كل لحظة تكتشف أشياء جديدة فيه، وفي كل لحظة، كان يبدو لها بمظهر مختلف،

«أنا واثقة من أن لا مثيل له على الأرض»، قالت في نفسها وهي تتأمّل الوادي.

وفجأة، كما لو أنّ أفكارها كفت لإظهاره، شاهدته يتسلّق المنحدر، أتياً من القرية.

كان راكباً جواده، يحيط به عدد من الرجال معتمرين العمام ومتردين الجلابية التقليدية، وكلهم يتكلّمون بحماسة ويقومون بحركات كثيرة. أما هو، فلم تشكّ نيقادا في أنه كان يوليهم اهتمامه كلّهُ.

كانت الآن تعرف ملكته على التركيز وتُعجب بها، تلك الملكة التي لم يكن يفوت فرصة استخدامها على كل شخص يهّمه أمره. فقد يكون رجلاً يبحث معه في شؤونه وشجونته الشخصية، أو طفلاً وجده يبكي في الشارع فراح يخفّف عنه. لم يكن يجد أي شيء سطحيّاً وتافهاً. وقد انتهت نيقادا إلى الاستنتاج من ملاحظاتها بأن تايرون ستروم شخص مميّز لأنه نادراً ما كان يُفكّر في نفسه.

كانت الفتاة تعيش حياة غريبة في القصبّة الوردية. بيد أنها لم تكن لتعلم يوماً بمثل تلك الحياة.

كانا كلّ يوم يتناولان طعام الفطور معاً، بُعيد عودة تايرون ستروم من نزهته على ظهر الجواد.

كان قد درج على مغادرة القصبّة قبل استيقاظ نيقادا بكثير. وهي كانت تودّ لو ترافقه، إلّا أنها كانت خجولة جداً لتطرح عرضاً كهذا.

كان يعود مع إشراقة الشمس. وبالرغم من الهواء البارد في

تلك الفترة، كانا يجلسان في الفناء الداخلي الذي ترتفع حوله أسوار القصب.

هناك، كانت تنمو نباتات عدّة، وأزهار وحتى أشجار مثمرة، وكان نبع ماء حجريّ صغير منبجس المياه يرافق أحاديثهما بخيريه الموسيقي.

وحالما ينتهيان من فطورهما، كان تايرون ستروم ينكبّ على عمله، فتحذو نيقادا حذوه لعدم وجود خيار آخر أمامها.

كانت قد توهمت في بداية الأمر أنّه سيتركها وحيدة بلا شيء تقضي به وقتها، كما كانت حالها في اليخت. بيد أنه، لما اقترحت نسخ المخطوطة، سارع فأخذ كلامها على محمل الجدّ وعرض أمامها الصفحات التي انتهى من صياغتها وتصحيحها وبدأت عملها فوراً، فصعب عليها أحياناً إدراك التعديلات التي أجراها والإضافات والإحالات. كما أنها لاقت صعوبة في فهم الكلمات المستقاة من اللغة المحلية.

وكانا يلتقيان أيضاً لتناول الغداء. وبعد طعام خفيف، إنما لذيق، كان السكون يخيم على القصب، فيخذ كلهم إلى القياولة في ذلك الوقت، كان تايرون ستروم ونيقادا يتجادبان أطراف الحديث في نداوة الصالون المنعشة، بينما الستائر مسدلة، والمراوح تتماوج فوق رأسيهما.

تردّدت في بداية الأمر في طرح أسئلة عليه، مخافة أن يجزرها. ثمّ، بعد أن بدأت تسترخي على الدواوين الواطئة، سرعان ما تملّكتها جراءة الاستفسار منه عن كل أنواع التفاصيل التي تجهلها.

لا أسئلة تتعلّق بمهنته. فقد كانت أكيدة من عدم إجابته عليها.

علمت أن أيّ انكليزي آخر لم يتمكّن من السفر عبر الجنوب المغربي كما فعل هو، ولا من بناء منزل في طفراؤوت. - إن القبائل ترتاب في الغرباء والكافرين، قال لها شارحاً. ويُنظر إلى المسافرين بكثير من الريبة، وعادةً ما ينتهي أمرهم بالقتل.

- أما أنت، فأنت مختلف، اليس كذلك؟
- لقد توصلوا إلى منحي ثقتهم لأسباب مختلفة، أجاب درواغاً.

وأول مرّة زرتُ فيها المنطقة، كانوا يرسلوني من قبيلة إلى أخرى مزوّداً بحربة خاصة تقوم مقام التعويذة، وتتيح لي الذهاب إلى حدود الأراضي المجاورة.

وضحك ضحكة مدوّية ثم أضاف:
- إن المكان الذي نمكث فيه الآن غاية في السريّة بحيث

تسير إليه الخرائط على أنّه «جبال صحراويّة قليلة السكان».

ومع أن تايرون ستروم أبى الإسترسال في الحديث عن أعماله إلّا أنّه، في المقابل، تحدّث بطيبة خاطر عن الأماكن التي زارها، والناس الذين التقاهم. فضلاً عن أنه عرض لها أفكاره وفلسفته، خصوصاً خلال اليومين الأخيرين.

«لقد تعلّمتُ هنا أكثر من أيّ مكان آخر»، كانت نيقادا تقول في نفسها، وهي تراقب الرجل يرتقي المنحدر على صهوة حصانه.

والحق يُقال إنَّ حقدَها تبخَّرَ يومَ راحت ترتجف خوفاً خلف
المسخور، في اللحظة التي أدركت فيها أنَّ تايرون ستروم سوف
يحميها من رجال الشيخ.
ثم، عندما ضَمَّها بذراعيه وهم يسرعون نحو طفراؤوث، على
راس القافلة، شعرت بالتعزية والإنفراج، وكذلك بشيء إضافي:
إحساس غريب بأنَّه يضمُّها إليه وأنَّ بإمكانها إخفاء وجهها في
كفِّه.

يومها، لم تعترف بذلك، كما لم تعترف به فيما بعد، عندما
نامت في الغرفة المجاورة لغرفته، هانئة كطفلة صغيرة لأنَّها
أعرف أنَّه قريب منها إلى هذا الحدِّ.
«يومها كنتُ أحبُّه»، فكُرت نيقادا، «وقد تضاعف حبي له
يوماً بعد يوم. وحدها كبريائي منعتني من الإقرار بذلك».
مرَّت الأيامُ بسرعةَ جداً وهي تقرا كتاب تايرون ستروم.
كانت تعدُّ الساعات التي تفصل بينها وبين طعام الفطور حتى
يُجاذبها الحديث؛ أما السهرات فكانت سحراً لا يقاوم.

تذكُرت مساء اليوم الثاني، حين دخلت الفناء الداخلي حيث
كان ينتظرها، فوجدت الطاولة مضاءةً بالشموع. وإذا شاهدت
النور ينعكس في النبع، قالت بتهكُّم.
- يا للمشهد... إنَّه بحق ديكور مسرحي!
- نعم، لكنَّه أيضاً غاية في الرومنسية.
- لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أنت تعرف أنَّ الرومنسية
لا تهمني كثيراً.

كانت الشمس في ظهره فبدا وكأنَّه محاط بهالة. وخطر
فجأة في بال نيقادا، أنَّها لم تجد نفسها أبداً في حضرة رجل
يمثل هذه العدوانية، يتمتَّع بشخصية لها ما لها من مهابة.
وقرَّرت منذ ذلك الوقت عدم تحدُّيه، ذاك أنَّها تحبُّ
الإستماع إلى حديثه. ثمَّ إنَّها كانت تعي تماماً أنَّ لديه الكثير
يعلمها إيَّاه وأنها تكون غيبية إن لم تستفد من ذلك طالما هي
برفقته... بطيبة خاطر أو رغماً عنها...

وقجأة، خطر في بالها أنه يوماً ما، غداً، أو بعد أسابيع
سوف يقرُّ الرحيل. وسوف يعيدها إلى المجتمع الذي الفته
قبلاً، كانت تؤدُّ من كلِّ قلبها أن يحصل ذلك. وها هي الآن
بطريقة مفاجئة تماماً، تكتشف أنَّها لا ترغب في الرحيل. وكان
لتلك الفكرة مفعول طلاقة المسدِّس.

كان من غير المجدي التساؤل عن سبب ذلك. فالأرض قد
انشقَّت، ووجدت نفسها على شفير هاوية ترتفع منها أصوات
جهنمية تسخر منها لأنَّها تريد البقاء معه.

ومن أعماق كيائها، صرخت صرخة مدوية. «لا! لا!» تمتصت
«أنا أكرهه، أكرهه لأنَّه عاملني كما تجرُّ على معاملتي!». بيد
أنَّ الضحكات الحقودة كانت تهمس لها أنها تحبُّه. وكان
نيقادا تتخبَّط. ففي حين كان رأسها يصرُّ على البغض، كان
قلبها يصرخ لها بالحقيقة: إنها تحبُّه.

«أواه! يا إلهي، إنَّه لأمر مستحيل!» هتفت عالياً.
ومع ذلك، كلُّما كانت تعترض كلُّما كانت تتأكَّد من الحقيقة
إنَّها تحبُّه فعلاً.

- إذا كنتِ تفترقين إلى هذا، فالأمر مؤسف.

- لا أوافقك الرأي. فأنا بذلك أوفر على نفسي آلام الراس والآهات غير المجدية التي تجعل الناس في رخاوة وسخف.

- منذ بداية الأزمنة، كان الحب هو الذي حدا بالناس إلى إنجاز المآثر البطولية، فالحب هو الذي أوحى لهم بالأعمال الرائعة. إن في مجال الرسم أو الأدب. إن الحب هو الذي يكمن، مثلاً، وراء بناء مدفن تاج محل الرائع.

- أشفق على النساء اللواتي كان عليهن احتمال العهود المتباكية.

- إن الله في خلقه شؤون، أجاب تايرون ستروم. لقد منحنا جسد امرأة ووجه امرأة لكنه نسي القلب.

- وهو ما أشكر السماء عليه كل يوم من أيام حياتي، قالت نيفادا. ففي حين تتلوى نساء أخريات في قيود من صنعهن، تراني، أنا، حرة.

وإذ تبينت وميض استهزاء في عيني تايرون ستروم، أضافت بهدوء:

- آواه! أتكلّم عن الحرية من وجهة النظر العاطفية، بالتأكيد! فأنا أعرف تماماً أنني، من الناحية الجسدية، سجينتك.

- لو تصرف كما كان الرجال يفعلون منذ قرن خلا، لسجنتك في زنزانية دامية. إن في أسفل كل قسبة في الجنوب المغربي واحدة مشابهة.

ثم أضاف مبتسماً:

- ... فيما مضى، كان المسجونون يعلقون ببعضهم بعضاً بواسطة حلقات ثقيلة وقيود. وكانوا يتناولون من الطعام ما يكفي لإبقائهم على قيد الحياة، ليس إلا.

- يا للهمجية!

- صحيح. وقد كانوا يمضون حياتهم كلها في الظلمة. وحده الموت كان خلاصهم.

- إذاً، كان هذا ما ينتظرني!

- آواه! لو فكرتُ ملياً بالأمر، لشككتُ في ذلك. فخاطفك كان وجد لك مكاناً في حريمه.

وارتعشت نيفادا لفكرة أنها كانت على قاب قوسين من مصير مماثل. الحريم أو الزنزانية! كم من النساء لم يُقيض لهن هذا الخيار؟

والحال أنها عشية اليوم السابق، وجدت نيفادا نفسها عاجزة عن إطلاق المزاح حول الأخاذ للفناء الصغير. كانت مسحورة بشكل من الأشكال.

كانت، في قفطانها الأزرق الغامق، تشعر وكأنها قطعة من السماء.

واستسلاماً منها لمزاج غريب أو بدافع الغنج، وضعت نيفادا على شعرها المتوهج برقعاً أزرق، وزينته بمشابك على شكل أنجم.

وبينما كانت تتقدّم نحو تايرون ستروم، راحت تدقّ بهدوء اجراس فضية صغيرة علقتها في خلاخل جعلتها في قدميها. وغريزيّاً، كانت تعرف أنها في إن معاً غامضة وجذابة.

نظر إليها بغرابة لم تتمكن من تفسيرها تماماً. بيد أنها شعرت بأنه مدرك لوجودها تماماً كما كانت هي مدركة لوجودها. تحدثنا في المواضيع المعتادة: كتابه، اكتشاف جديد ما يتعلق بقبيلة مغربية. بيد أن فترات الصمت لم تغب: لكنها كانت لحظات بدا أن جمال الأزهار وسقسقة النبع يتكلمان فيها نيابة عنهما.

حينئذ شعرت بنفسها وكأنها آلة موسيقية بين يدي عازفها بارع. إلا أنها لم تكن ترغب أبداً في الإقرار بذلك. كل كلمة نطق بها، كان يُخيل إليها أنها تحمل معنى خاصاً يبلغ في أن معاً روحها وجسدها. كان، هو، هادئاً جداً. بيد أنها شعرت بأنه يسيطر عليها بكامل طاقته إلى حد امتصاص حياتها، بامتزاج أنفاسها بأنفاسه.

وعندما أزفت ساعة النوم، نهضت نيقادا ولبثت مدة بالقرب من النبع. كانت تحسّ بما يشبه الحمى، وبحاجة إلى التبرّد، وخيل إليها أنه يراقبها، إلا أنها لم تتأكد من الأمر. هل تراه يدري بأنه سبب اضطرابها، سبب ربيبتها المفاجئة والصُخب الذي يجتاح صدرها والذي تخشى تسميته باسمه؟

- عمت مساءً.

كان يودّها أن تمكث أكثر، لكنّ خوفها كان كبيراً.

- عمت مساءً، نيقادا.

لم يكن في الكلمات التي تلفظ بها بصوت هادىء ورزين أي شيء قد يسرّع ضربات قلبها، إلا أن حركة تنفّسها زادت سرعة.

كانت أفكارها تتزاحم. ماذا لو طلبت منه أن يلمسها، أن يلمسها، كماي رجل يحاول في ظروف كهذه أن يقوم بذلك؟ ودّهلت نيقادا من خيالها الجامح. كيف يمكن لأفكار مماثلة أن تجول في فكرها، أيّاً كان الرجل، فكيف بالأحرى تايرون ستروم.

كانت تكرهه. فهو يمثل كل ما ترفضه وكل ما يثير غيظها.

- عمت مساءً! ردّدت بإيجاز.

ثم غادرت الفناء دون الإلتفات خلفها.

ولكنّ، ما إن دخلت إلى غرفتها واقفلت بابها، حتى وضعت يديها على خديها اللأهيين، متسائلة إن لم تدفعها الشمس المغربية إلى الجنون.

كذلك، تذكّرت أنه غداة وصولهما، أحضر بعض النّجار سبيحة ذلك اليوم تشكيلة كبيرة من القفاطين، كما وعد تايرون ستروم.

كانت كلها غاية في الجمال بألوانها الغامقة والفاقعة، كما تحبّها نساء البربر، فهي ناعمة الزركشة، تختلط في بعضها شيوط الذهب والفضة بالفيروز، والمرجان والجَمْشُتُ المجلوب من الأطلس الأعلى.

وكان معهم أيضاً أخمرة وغلائل وأوشحة، لا يُمكن للناظر إليها أن يقول أيّها الأجمل.

قرّر قرار نيقادا على بعضها فتولّى تايرون ستروم أمر المساومة عنها. ذاك أن عدم المساومة يعني انتزاع المتعة من التاجر الذي ينتظر أن تكون كل عملية بيع رياضة للفكر أيضاً.

كذلك، حضر بائعو الجواهرات، فجلسوا شاكي الأرجل،
وعرضوا بضائعهم على مربعات صغيرة من المخمل الأسود.
ولم تقوَ نيقادا على مقاومة قرط من الفضة، منحوت على
شكل هلال، مرصع بالأحجار الكريمة أو اللآلئ، صنعتها أيادي
فنانين حقيقيين.

كانت الأساور ذات الرسوم الغريبة ساحرة للآلباب، وكذلك
الخلاخل المتجانسة معها. ومن بين هذه الأخيرة، فتنتها تلك
التي عُلقَت فيها أجراسٌ صغيرة بحيث كانت تضعها في قدميها
العاريتين المدهونتين بالحنَّة، كلُّما جلست لتناول العشاء مع
تايرون سترون في الفناء الداخلي الصغير، تحت السَّماء
الموكبة.

- إنني أمسكُ حسابات ما تنفقه عليّ، قالت له، فسوف
أدفع ما أدين لك به. لقد كنتُ أحمل الكثير من المال.
- مالك في مكان أمين.

- علينا أن نأتي بقافلة من عشرين جَمَلاً على الأقل لنقل
جميع مشترياتني، كانت تهتف ضاحكة.

- سوف نتدبّر الأمر، أعدك، حالما نقرّر الرحيل.
- حالما تقرّر أنت الرحيل، كانت تصحّح له.
ويضحك.

- إنك على صواب. عندما أقرّر إعادتك إلى أوروبا.
كانت توذّ لو تطلب منه المزيد من الإيضاح. لكنّها، بالرغم
من أن الكلمات كانت قريبة من شفقتها، كانت تخشى أن يفسّر
فضولها رغبةً منها في الإسراع بالرحيل.

كان تايرون ستروم قريباً جداً من القصبه، ولم تكن نيقادا
تشبح بنظرها عنه وهي تفكّر: أحبّه! كيف قيّض لهذا أن
يحدث؟ ما العمل؟

فعمد ووصولهما إلى طفراؤوت، ما فتىء يُظهر مجاملة
وامتماماً برفاهيتها، تماماً كما كان ليتصرّف حيال آية ضيفة.

بيد أنّها لم تلاحظ أبداً تحت هذه المجاملة السطحيّة، ما
بدلّ على تبدّل في الرأي. كانت لا تزال تسمعه يقول لها: «لست
امراةً طبيعيّة، نيقادا، فأنت قاسية، بلا قلب، حتى أكاد أقول
إنك شيطانة!».

كان أصوته الحازم لاسعاً كالسوط، وتذكّرت أيضاً هيئته
العابسة والصّارمة عندما أعلن: «لم أصطحبك لإنقاذ ابن
اختي داويد وداندولاند الشاب فحسب، بل أيضاً كي أرى إن
كان بالإمكان تحويل ساحرة إلى امرأة!».

تحويل ساحرة إلى امرأة! كانت هذه الكلمات تقضّ
مضجعها، حتى أنّها كانت تستفيق أحياناً في الليل على صوته
لا يفتأ يردّها.

لذلك، كان من السهل عليها القول إن لا أهمية البتّة لمشاعر
أو آراء تايرون ستروم حيالها، وانها سوف تثار لنفسها عندما
يسترجع حريتها. لم تكن تعرف بعد كيف ستثار تماماً، لكنها
سوف تهينه، وتسبّب له الألم الذي سبّبها لها.

«أكرهه! أكرهه! أكرهه!» كانت تتلو كالصلاة يوماً دون كل.
وها أنا أحبّه الآن! كانت نيقادا تعترف لنفسها إذ
بتملكها اليأس.

«كيف يمكن أن أحب رجلاً له في هذا الرأي التأفف؟»
والحال أنه لم يكن ثمة مجال للشك في الأمر: نيقادا عاشقة
يكفي أن ترى تايرون ستروم داخل الصالون حتى يهتز قلبها
في صدرها للتو. يكفي أن تسمع نبرة صوته حتى تصعد إلى
حلقها إثارة غريبة. وعندما يضحك، كان وكأن الشمس تسطع
أكثر الحياة فيها تتضاعف.
أدار تايرون ستروم جواده تجاه مدخل القسبة، وما لبث هو
ومطّيته أن اختفيا عن العيان.
وحده جمال الوادي وصوته بقيا في المشهد، فراحت نيقادا
تتأمله، مستشعرةً بأنه على الرغم من تلك الروعة ولو لحظة
واحدة، إذ أنه سيأتي يوم تُحرم فيه منها.
لن يبقى لها سوى الذكريات بعد أن يعيدها إلى أوروبا،
ويعد أن ترجع هي نفسها، فلا تعود تلك السّاحرة التي يعمل
جاهداً لتحويلها إلى امرأة، وبعد أن تعود نيقادا فان أريدن
متى يحصل ذلك؟
خفصت نظرها على المخطوطة فلاحظت أنها اشتغلت كثيراً
في الأيام الأخيرة. قد ينتهي الكتاب في وقت قريب. فهي لم تكن
تملك آية فكرة عن الحجم الذي سوف يعطيه لمؤلّفه.
كيف ستكون عقليته فيما بعد؟ هل تُراه سيبحث عن
مغامرات جديدة؟ كانت نيقادا تعرف الجواب في قلبها، فهو
ليس بالرجل الذي يبقى مكتوف اليدين لفترة طويلة.
أن يأخذ بضعة أيام من الراحة، فهذا أمر آخر. أما
الحقيقة فهي أنه يحتاج إلى الحركة ليحقّق ذاته.

«وماذا لو لم أعد أراه أبداً؟» كان هذا السؤال يحتلّ فكر
الفتاة منذ أيام. وفجأة، شعرت نيقادا بالم مفاجيء، كما لو أنّ
النجراً أغمد في صدرها. نهضت وتوجّهت إلى الصالون لتنتظر
تايرون ستروم.
وصل بعد دقائق؛ فرأت أنه يحمل رسالة.
ولما نظرت إليه بدهشة، قال مفسراً:
- قيل لي إنّ ثمة ناقل بريد يرغب في رؤيتي، وقد أردتُ
لجنبيبه هذه المسافة الطويلة.
- الناس إذاً يعرفون أنك تقيم هنا؟
- أواه! بعض الأشخاص، فقط ممّن اخترتهم. لكن، إعلمي
أن هذه الرسالة مهمة من الناحية الدبلوماسية.
وثار فضول نيقادا، إلّا أنها، إذ رآته يضع الرسالة على
مكتبه دون فضّها، لم تتجرأ على طرح المزيد من الأسئلة.
- لقد أهملتُ عملي هذا الصباح، قال ملاحظاً.
كانت نيقادا تراقبه، ففهمت فجأة أنه يودّ أن يبقى بمفرده
- ليس من عادتك ركوب الحصان بعد الإفطار.
- إذا كان ما تقولينه توبيخاً، أجاب بابتسامة هازئة،
فاسمحي لي أن أفتك إلى أنني بالكاد أضعت ساعة من العمل.
- أواه! لم يكن كلامي توبيخاً، أجابت نيقادا بحيوية. فكّرت
بكل بساطة أن ذلك لم يكن من عادتك، لا أكثر.
- لقد اتّبعتنا توقيتاً بيروقراطياً، وهذا خطأ في نظري. إنّ
الطقس أكثر برودة اليوم. هل تودّين مرافقتي في نزهة على ظهر
الحصان؟

- حقاً؟ أهذا ممكن؟ هتفت مذهولةً.

- لم أصطحك من قبل لأسباب واضحة، أجب. بيد أن الأصدقاء الذين أرسلتهم لاستكشاف الجوار نقلوا إليّ أن لا أثر منظوراً لرجال الشيخ؛ وافترض أنهم تخلّوا عن ملاحقتهم لك.

- أمل ذلك، قالت نيفادا بحيويّة. إذا، أستطيع حقاً الخروج دونما خشية؟

- ولكن، من الأفضل أن تضعي لثامك. لديّ جواد فتي سوف يعجبك بالتأكيد. إنّ بإمكانه حمل سرج مريح بما فيه الكفاية.

- سوف أكون جاهزةً بعد دقيقتين.

وأسرعت الى غرفتها تحضر الحَيِّك.

كانت ترتدي قفطاناً جديداً من الحرير الأبيض الموهَّب بالفضّة. ولم يكن ثوبها يناسب ركوب الخيل، بيد أنها لم تكن تملك الوقت لاستبداله.

وضعت اللثام فوق أنفها، وتدفّرت بالحَيِّك ولحقت على عمل بتايرون ستروم.

- سريعة كنت! قال مبتسماً.

- خشيت ألا تنتظرني!

- تفهمين أننا لن نتمكّن من الذهاب بعيداً جداً إذ لن نذهب الحرارة أن تشتدّ. سوف نذهب بالأحرى غداً. تأتيين معي بعد الفطور، إذا شئت.

- هذا غاية ما أتمناه، أجايت شبه لاهئة.

التفت تايرون ستروم نحو الباب؛ وفي تلك اللحظة، إندفع أحد الخدم الى الصالون.

القى التحيات المعتادة لكنّ الإضطراب كان بادياً عليه. وراح لثوّه يتكلّم بسرعة كبيرة، بصوت كان يرتفع من جرّاء الإثارة.

أصاحت نيفادا إليه، إلّا أنها لم تفهم شيئاً. كانت تجهد نفسها لتعلّم اللغة طالبةً من خادمتها ترديد أسماء كلّ الأشياء الموجودة في غرفتها. وصار بمقدورها تركيب بعض الجمل القصيرة مثل: «أشكرك»، «هل بإمكانني أخذ المزيد؟» و«طابت ليلتك».

كان الخادم لسنّاً جداً، وتايرون ستروم يصغي اليه باهتمام، وعلى وجهه إمارات الوقار.

أخيراً، سكت الرجل. فتدخّلت نيفادا وقد انتابها القلق واستشعرت المصيبة:

- ماذا في الأمر؟ ماذا قال لك؟

- لقد حدثت هزة أرضية.

- هزة أرضية!.

- نعم، في قرية اسمها سَكْجينا. وعلى التوجّه إليها فوراً لربّما كنتُ ذا فائدة بشكلٍ أو بآخر، قال تايرون ستروم مارحاً.

- إسمح لي بمرافقتك!

تكلّمت نيفادا دون أن تعي ما تقول تقريباً. فنظر إليها تايرون ستروم متعجباً.

- حسناً! أجب. الجوادان في الإنتظار خارجاً.

وبعد دقائق، غادرا الوادي لتلامس حوافر الجوادين ارضي الصحراء المحصبة.

كانت المطيَّتان تعدوان بسرعة فرفعت نيفادا صوتها لتسأل - هل سَكْجينا بعيدة؟

- ستة كيلومترات أو سبعة. - هل الهزَّات الأرضية نادرة هنا؟

- إنها كثيرة الحدوث في هذه المنطقة من العالم، ولكن غالباً ما لا يفتن إليها أحد لأنها لا توقع ضحايا.

كان يمكن أن تطرح نيفادا ألف سؤال وسؤال، بيد أن تقدُّمهما كان سريعاً، وهي كانت تركز على البقاء على ظهر جوادها. فالواقع أنه لم يكن من السهل امتطاء جواد من جانبيه واحد وإن كان السرج على شكل كرسي للأطفال يمكن التمسك به. لقد كان التماسك على سهوة الجواد يتطلب خبرة كبيرة.

وما لبثا أن ولجا مكاناً تشرف عليه شعاب صخرية المنحدرات، وتترامى فيه أودية مجدبة وأراض جرداء تنتظم عليها جلاميد الصخور.

ثم، عند نهاية أحد المعابر الوعرة، وقع نظرهما على بيوت صغيرة تتكئ على جرف عالٍ، فصرخ تايرون ستروم: سَكْجينا!

كان ستارٌ كثيف من الغبار معلقاً فوق المدينة. إقتربا أكثر، فأدركت نيفادا حينها أن ما بدا لها من البعيد شبيهاً بالنازل، لم يكن في الحقيقة سوى كومة من المواد المشوهة والممزقة. كان المنظر خليطاً مبعثراً من قطع السقوف، والجدران

والأبواب. كما أن كتلاً من الحجارة التي انفصلت عن الجرف الصخري قد علقت هنا وهناك، محافظةً على توازن خطير. وكان رجال ونساء هائمين بين هذه القوضى، وقد استبد بهم الأسى بينما يصرخ بعضهم بأسماء من فقد.

كان الصوت مُصِماً للأذان. فلما اقتربا مما كان قرية، شاهدا ثياباً ممزقة من كل الألوان وقدحاً من النحاس يلمع في الشمس وبعض الوازم البيوت الغالية محطمةً يعلوها الغبار.

بيد أن هول الفاجعة لم يغدُ جلياً بحق إلا عندما وقع بصرهما على الجثث الهامدة طريحةً بين الأنقاض.

وفي حين قفز تايرون ستروم أرضاً، لاحظت نيفادا رجلاً يتخطى الأرض المتشققة، ويهرع لملاقاتهما. كان يرتدي الزي الأوروبي. وما لبثت أن تبينت من الياقة البيضاء والصديرة السوداء انتماء الرجل الى الكنيسة.

سلم تايرون ستروم جواده الى صبيّ يعتني به بعد أن شرح له ما عليه عمله، ثم التفت وصاح:

أيها المحترم! إنه لأمر رائع. لم أكن أنتظر وجودك هنا.

- كذلك أنا، سيد ستروم.

كان الكاهن يتكلم الإنكليزية بلكنة اسكتلندية واضحة.

- لقد أتيتُ حالماً علمتُ بالفاجعة، قال تايرون ستروم.

هل هناك الكثيرون تحت الأنقاض؟

- عدد هائل.

- ينبغي القيام بشيء ما.

وأَنْزَلَ نَيْفَادَا عَنْ جِوَادِهَا بَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ. فَأَمَسَكَ وَلَدٌ عَرَبِيٌّ
أَخْرَجَ بَزْمَامَ الْجِوَادِ لِيَقُودَهُ إِلَى غَابَةِ صَغِيرَةٍ مِنَ النَّخِيلِ.

- نَيْفَادَا، إِسْمَحِي لِي أَنْ أَقْدِمَ لَكَ الْمُحْتَرِمَ أُنْدُرُو فَرَايِزِرَ. إِنَّهُ
طَبِيبٌ بَارِعٌ وَمُرْسَلٌ يَحْضِي بِاحْتِرَامِ الْجَمِيعِ.
- إِنَّكَ تَكِيلٌ لِي الْمَدِيحِ، سَيِّدُ سَتْرُومِ!

وَصَافِحَ الْكَاهِنِ نَيْفَادَا دُونَ أَنْ يَبْدُو عَلَيْهِ أَيُّ أَثَرٍ لِلدَّهْشَةِ
مِنْ مَظْهَرِهَا.

- الْآنَسَةُ قَانَ أَرْدِينَ، أَمْرِكِيَّةٌ فِي زِيَارَةِ الْمَغْرِبِ، قَالَ تَابِيْرُونَ
سَتْرُومَ شَارِحاً. جَدُّ لَكَ مَكَاناً تَرَكَّزَ فِيهِ مَسْتَشْفَى؛ وَسَوْفَ
تَسَاعِدُكَ.

ثُمَّ أَقْبَلَتْ نَحْوَهُمْ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، تَحْمِلُ طِفْلاً صَغِيراً
بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا. كَانَتْ مَغْطَاةً بِالْوَحْلِ وَالْغَبَارِ وَتَتَنَحَّبُ بِصَوْتٍ عَالٍ
وَعَلَى مَا يَبْدُو. كَانَ الطِّفْلُ فَاقِداً وَعَيْه، وَرَبِمَا مَيْتاً؛ وَكَانَ الدَّمُ
يَسِيلُ مِنْ جِرْحٍ فِي جَبْهَتِهِ وَأَخْرَ فِي فَخْذِهِ.

خَطَا تَابِيْرُونَ سَتْرُومَ خَطْوَةً نَحْوَ الْمَرَأَةِ الَّتِي بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَكَادُ
لَا تَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ طِفْلِهَا، فَأَخَذَهُ مِنْهَا وَعَايِنَهُ لِبَضْعِ ثَوْبَانِ. ثُمَّ
مَدَّهُ إِلَى نَيْفَادَا:

- إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا، وَأَمَّهُ عَاجِزَةٌ تَمَاماً عَنِ الْإِهْتِمَامِ بِهِ،
إِذْهَبِي بِرَفْقَةٍ الْآبَ فَرَايِزِرَ وَسَوْفَ يَشِيرُ عَلَيْكَ بِمَا تَفْعَلِينَ.

وَعَقَدَتْ الدَّهْشَةُ لِسَانَ نَيْفَادَا فَلَمْ تُحَرِّجْ جِوَاباً، بَلْ تَنَاطَرَتْ
الطِّفْلُ مِنْ يَدَيْهِ بَعْدَ أَنْ رَدَّتْ الْحَيْكُ إِلَى الْخَلْفِ.

- آنَسَةُ قَانَ أَرْدِينَ، إِتْبَعْنِي، قَالَ أُنْدُرُو فَرَايِزِرَ.

كَانَ تَابِيْرُونَ سَتْرُومَ قَدْ ابْتَعَدَ فَلَمْ تَتِمَّكَنَّ نَيْفَادَا سِوَى مَنْ
الْإِنْصِيَاعِ.

وِخِلَالَ السَّاعَاتِ التَّالِيَةِ، لَمْ تَسْتَطِعْ نَيْفَادَا تَحْوِيلَ إِهْتِمَامِهَا
عَنِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ جِيءَ بِهِمْ الْوَاحِدَ تَلُو الْآخَرَ.

كَانَتْ تَعْرِضُهُمْ عَلَى أُنْدُرُو فَرَايِزِرَ لِيَعَايِنَهُمْ عِنْدَمَا تَكُونُ
جِرَاحُهُمْ خَطِرَةً وَتَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِيَّةٍ تَقْطِيبِ.

مَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ عَلَى الْكَاهِنِ الْجَلِيلِ أَنْ يُعْنَى أَيْضاً
بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، مَمَّنْ ظَهَرَ أَنْ إِصَابَتُهُمْ أَخْطَرَ مِنْ إِصَابَةِ
الْأَطْفَالِ مِنْ جِرَاءِ الْهَرَّةِ.

لَقَدْ اسْتَفَادَ الْكَاهِنُ مِنْ خَبْرَتِهِ السَّابِقَةِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ اكْتَشَفَ
جَانِباً لِمَنْزِلِ مَتَهَدِّمٍ جَزئياً حَيْثُ تَمَكَّنَ مِنْ إِبْوَاءِ الْمَصَابِينِ. كَانَتْ
تَطْلُعُ مِنَ السَّقْفِ تَحْمِيهِمْ مِنَ الشَّمْسِ، كَمَا خُصِّصَتْ لِأَطْفَالِ
نَيْفَادَا بِقَايَا حِجْرَةٍ فِي أَقْصَى زَاوِيَةِ مَمَّا كَانَ مَنْزِلاً فَاخِراً.

كَانَتْ دَرِيئَةٌ مِنَ الْجِرْحَى الصِّغَارِ مَمْدُودَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، فِيمَا
وَاحِدٍ أَوْ اثْنَانِ يَنَامَانِ عَلَى فَرَّاشٍ تَمَّ سَحْبُهُ مِنْ بَيْنِ الْأَنْقَاضِ.
أَمَّا الْآخَرُونَ فَمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ سِوَى قِطْعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ أَوْ بَعْضِ
سَعْفِ النَّخْلِ تَقِيهِمْ مِنَ الْغَبَارِ.

وَكَانَ الْغَبَارُ آفَةً الْآفَاتِ. فَقَدْ كَانَ يَتَسَلَّلُ إِلَى الْعَيْنِ وَالْحَلْقِ،
فَيَلْتَصِقُ بِالْجِرَاحِ بِحَيْثُ يَصْعَبُ تَنْظِيفُهَا، وَهُوَ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ
لِوَضْعِ الضَّمَامَاتِ عَلَيْهَا.

كَانَ الْأَطْفَالُ جَمِيعُهُمْ يَبْكُونَ مِنَ الْخَوْفِ أَوْ الْأَلَمِ، غَيْرَ أَنْ
الضُّجَّةَ الَّتِي كَانُوا يُحَدِّثُونَهَا كَانَتْ أَخْفَى مِنَ الضُّوْءِ النَّاجِمَةِ

عن أصوات النائحين على ضياع أرزاقهم أو أحد أفراد عائلتهم.

ظننت نيقادا في بادئ الأمر أنه سيكون من السهل إقناع بعض النساء بمساعدتها، لكنّها سرعان ما لاحظت أنّ الكارثة قد أربكتهنّ وأثّرت على أعصابهنّ، فلم يعد يُنتظر منهنّ منفعة تُذكر. والحقّ يُقال إنّ دموعهنّ وأعصابهنّ المتوتّرة لم تكن إلاّ لترديد من اضطراب الأطفال. لذلك، طلب منهنّ البقاء خارج المستشفى المرتجل، وهو ما تولّاه أندرو فرايزر الذي يتكلّم لغة أهل البلد.

ثمّ، شيئاً فشيئاً، وقد أنهكتهنّ الضجّة أو الغبار الخائف رحن يتربّحن في صميت تقطعه بعض الشخرات المتفرّقة.

وعندما قيّض لنيقادا التفكير في تايرون ستروم، إفترضت أنه يسحب الجثث المطمورة تحت المنازل المنهارة وكتل الصوّان التي انفصلت عن الجرف الصّخري.

وتضاعف عدد الذين لم يعد ينفع فيهم أي علاج. فكانوا يُرصفون في ظلال شجر البلح، ثم يُغطون بأول قطعة قماش يتم العثور عليها. ولكنّ، كان هناك أيضاً كثيرون من الغائبين عن الوعي، تمكّن أندرو فرايزر من إنعاشهم بفضل ما له من خبره،

واشدّت وطأة الحرارة بعد الظهر، إلاّ أنّ الرجال الذين كانوا يفتّشون تحت الأنقاض بإمرة تايرون ستروم استمروا في عملهم.

لم تتورّع نيقادا عن التفكير في أنّهم قد يتوقّفون عن أي

نشاط يقومون به لو لم يكن تايرون ستروم موجوداً لحثّهم وتشجيعهم.

وحلّ الظهر، ثمّ تقدّم الوقت ولم تصل أيّة مساعدة من القرى المجاورة.

- لقد أرسلتُ أحدهم الى تزنيّت مع لائحة باحتياجاتي، قال الأب فرايزر لنيقادا التي راحت تطالبه بمزيد من الضمادات. لم أكن أملك سوى العدّة الطبية المتواضعة التي أحملها معي دائماً، لكنّها غير كافية بتاتاً في كارثة كهذه.

- إنّ الأطفال الذين أسعفتهم هذا الصباح سوف يحتاجون الى ضمادات جديدة، قالت نيقادا بإصرار. وضحك الاسكتلنديّ.

- أخشى أن يكون عليهم الإنتظار، أيتها الشابة، بيد أنّك انجزت عملاً جيداً. لا بدّ أنّك تشعرين بالإرهاق.

- بل أنا عطشى للغاية، اعترفت نيقادا. اعطاها قربته المصنوعة من جلد الماعز. وكان الماء فيها أكثر ملوحة ومرارة من الذي شربته في الواحة.

- أظن ان السيّد ستروم سوف يجد لك شيئاً تأكليته فيما بعد.

- لست بجائعة، أجابت نيقادا. أوّده فقط لو أن بإمكانني تقديم المزيد من العون. وأرغب، متى أُتيح لك ذلك، في أن ترى إن كنتُ شددتُ الضمادات جيداً، فليس لي كبير خبرة في هذا المجال.

- لقد أحسنتُ صنيعاً، أجاب أندرو فرايزر.

ولاحت من نيقادا ابتسامة رضى. كان ذلك أفضل إمرأة
يمكن توجيهه إليها.

في هذه اللحظة، هرع ولد صغير نحوهم يتكلم بصوت
متهدج.

- ماذا في الأمر؟ سألت نيقادا.

- السيد ستروم يبلغنا أنهم عثروا أيضاً على دزينة من
الأشخاص أدرك الموت غالبيتهم، غير أنه سيتم إحضار
الأخرين إلينا في غضون دقائق.

- وماذا نفعل إن نفذت منا الضمادات؟ صرخت نيقادا.

ثم، خطرت لها فكرة مفاجئة.

- الحيك الذي البسه سميك، لكنه نظيف على الأقل. قد
يكون بإمكاننا تقطيعه ضمادات صغيرة.

- اقتراح رائع، أنسة فان أرين، عليك بالمقص.

جلست نيقادا على الأرض وشرعت في عملها.

كانت الشمس تميل الى الغروب متوهجة النور عندما خرج
تايرون ستروم من كومة من الرُدم والحجارة، وسلك ببطء طريق

المنزل المهتم الذي يقوم مقام المستشفى.

كان الكاهن يغطي وجه امرأة مسنة فارقت الحياة لتوها
بالرغم من كل جهوده، عندما ظهر تايرون ستروم.

- لا أظن أننا سنعثر على أناس آخرين. ولا بد أن التعسرين
الذين ما زالوا تحت الأنقاض قد زهقت أرواحهم في الوقت

الحاضر. كان يمسح جبهته بظاهر يده، مخلفاً أثراً على شكل
ثلوم من الغبار الرمادي اللصق بوجهه.

كان يبدو متعباً فناوله أندرو فرايزر قربه قائلاً:

- لا أدري ماذا كنا فعلنا بدونك، سيد ستروم.

- أظن أن سكان سكجينا محظوظون بأننا هنا معاً، أجاب
تايرون ستروم.

ثم نظر الى الجرحى الممددين على الأرض وأضاف:

- لولاك مات غالبية الجرحى.

- نعم، فمن حسن الحظ أنني كنت في الجوار، قال

الاسكتلندي. فالرب هو الذي قاد خطاي الى هنا.

- أمين، ختم تايرون ستروم، طارفاً بعينيه. هل أرسلت

بطلب اللوازم من تزنيث؟

- نعم. أظن أنني سأحصل غداً صباحاً على أكثر ما

يلزمي. أما الآن فينبغي أن تعود الى بيتك طالما الليل لم يهبط.

فانا بإمكانني الآن تدبر أمرى بمفردى. وشكري الجزيل للأنسة

فان أرين.

ونظر تايرون ستروم حوله.

- أين هي؟

- إنها مع الأولاد. لقد أبدعت حقاً. لا أدري ماذا كان حل

بي لو لم تكن هي الى جانبي.

دخل تايرون ستروم الى عمق المنزل المتداعي.

كانت بعض الأمهات ممددات بالقرب من أطفالهن، أولئك

السواتي هدا روعهن بعض الشيء بحيث سُمح لهن بالبقاء

بالقرب منهم دون إزعاجهم.

ووجد تايرون ستروم الفتاة في الناحية الأخرى من الغرفة.

كانت مستلقية على الأرض مُسندةً رأسها الى بقجة من الخرق،
كان قفطانها الأبيض أصلاً قد تلوّث بالغبار والوحل ولطمته
بقع من الدم.

كانت تضمُّ الى صدرها الأيسر طفلاً معصوب الرأس في حين
تضع يدها اليمنى على كتف طفلة في السادسة من عمرها
تلتصق بخاصرتها.

تأملها بضع لحظات أيضاً. ثم، أخذ الطفل من ذراعيها،
وضعه باحتراس على فراش، بالقرب من طفل آخر أسلم عينيه
للنوم.

واستيقظت نيفادا عندما أراد تايرون ستروم زحزحة الطفلة.
- ماذا... هناك؟ سألت.

- لم يعد بإمكانك القيام بأي شيء هنا، أجب. سوف
أصطحبك الى المنزل.

- أواه!.. أنا نعيسة.

- لا غرابة في ذلك. فقد عملت بجهد ولا أشك في أنك
تتصورين جوعاً.

ولاحت على وجهها ابتسامة غامضة، كما لو أنها لا تفهم
كلماته تماماً. رفع الطفلة ووضعها بروية مكان نيفادا، جاعلاً

خدها على البقجة، فلم تحرك ساكناً.
كانت نيفادا تنتظر. أحاط كتفيها بذراعه وقادها نحو
الكاهن.

- سوف أعود غداً صباحاً، قال تايرون ستروم، فالآنسة
فان أريدن وأنا نود أن نهب شيئاً لإعادة بناء هذه القرية.

هل بإمكانك إعلام المسؤولين بذلك؟
- إنني أمضي وقتي بشكرك، سيد ستروم، بحيث تعوزني

الكلمات. لكنّ أعلم أنّ شكريّ لك غير محدود.

- إننا في عملنا هذا نقدّم الشكر لله. فالآنسة فان أريدن وأنا
لجونا منذ وقت من خطر من نوع آخر، ووجدنا هنا فرصة

للتعبير عن شكرنا.
- أنا لا أرفض آية هبة، قال الكاهن. هيا، خذ هذه الشابة
الى المنزل فهي تستحق الراحة بحق.

لقد لاحظ تايرون ستروم، وقد كان لا يزال ممسكاً بها من
كتفيها، أنها في حاجة ماسة الى النوم حتى تستعيد وعيها

ونشاطها.
كان الولدان لا يزالان بالقرب من الجوادين. فتوجّه تايرون

ستروم الى أكبرهما سنأ وسأله إذا كان يُحسن امتطاء الجياد.
ونال الولد الآخر بعضاً من المال مكافأة له، ممّا أدخل الى

قلبه فرحاً لا يوصف. ثم وضع تايرون ستروم نيفادا على
الشرج أمامه، وضمّها بذراعه كي لا تقع، وتوجّه نحو

مغراؤوت.
قبل أن يصل الى القرية كان الليل قد أرخى سدوله. بيد

أن تايرون ستروم لم يرتبك في الاهتداء الى طريقه، بفضل
النجوم التي كانت تضيء لحظة بلحظة. وما لبثت أنوار القرية

الصغيرة أن قادت خطاه بشكل أوضح.
لم تفتح نيفادا عينيها إلا عند باب القصبية. ومرة جديدة،

احسّت بالأمان الذي شعرت به مع تايرون ستروم عندما

انتابها الخوف الشديد من وقوعها أسيرة في أيدي رجال الشيخ.

«كيف تمكّنت من النوم وأنا بين ذراعيه، ورأسي ملقى على كتفه؟» تساءلت بدهشة، هي التي طالما تمنّت أن يشدها إليها، وتحقّق حلمها دون أن تعي ذلك. كادت تبكي حنقاً.

سمعت أصوات الترحيب يطلقها خدم القصبّة. فهم الذين أيقظوها.

عبّر تايرون ستروم بوابة المدخل الرئيسي، وما لبثا أن ادركا الباب الداخلي الذي يقضي الى المنزل.

نحن... في منزلنا، تمتعت.

نعم، في منزلنا، أجب.

قوّم جلستها على السُرج قبل أن يترجّل، ثمّ حملها بهن ذراعيه ومضى بها الى غرفتها.

بإمكانك النوم بعد أن تتناول شيئاً من الطعام، قال امرأاً ولكنّ، إغتسلي قبل ذلك وتزيّني.

وخرج بعد أن وضعها على حافة السرير. بعد لحظات وصلت خادمة تحمل بين يديها ماءً ساخناً ومناشف نظيفة.

ونهدت نيفادا، متعبة، تشعر وكأنّ كلّ عمل تقوم به يحتاج الى جهد جبّار. وأطلقت صرخة هلع عندما رأت نفسها في المرآة.

فاستفاقت تماماً. كان وجهها رمادياً تماماً من جرّاء الغبار وشعرها المتطاير في الهواء، لا يزال مربوطاً بخرقه عثرت عليها صدفة. وكان من الصعب التعرّف الى ققطانها لكثرة البقع والأوساخ العالقة به.

بعد ساعة من الزمن، لحقت بتايرون ستروم الى الفناء الصغير. لم يكن شعرها قد جفّ بعد، ولم يكن ققطانها الجديد يشبه في شيء الثوب المتسخ دماً الذي أمرت الخادمة بإتلافه. نهض تايرون ستروم حالماً شاهدها، ووضع في يدها كأساً من النبيذ قبل أن تندس بينت شفة.

لو شربتُ قبل أن أكل، لثملتُ، قالت.

لا يقلقنك الأمر. فسوف أحملك إلى سريرك.

فاغرقت في الضحك واحمرّ خذاها وهي ترشف كأسها. ثم ما لبثت العشاء أن حضر فأحسّت نيفادا بتعبها يتضاعل كلّما تناولت شيئاً من الطعام. وبالرغم من شعورها بالتعب، إلاّ أنها لم تعد مُنهكة الى حدّ الإنهيار.

تناولا طعام العشاء بما يشبه الصمت. وعندما انسحب الخدم، قال تايرون ستروم:

إذهبي الآن واستريحي. لكنني أودّ قبل ذلك أن أقول لك إنك كنتِ رائعةً.

كان في صوته نبرة مميّزة فراحت نيفادا تتأمّله بدهشة. وعندما التقى نظرها، شعرت بالخجل وأشاحت بوجهها.

كنت خائفة... خوفاً شديداً... من ارتكاب... حماقات.

لكنّ الأب فرايزر أعرب عن سروره بي.

عن سروره العظيم، فعلاً. لقد أكّد لي أنّه لم يكن ليفعل ما فعله من دونك.

ولا من دونك! فأنت الذي أنقذت هؤلاء الناس كلهم. لو لم تكن هناك، لكانوا انتحبوا دون القيام بأي شيء.

- الناس البدائيون هم هم أينما كانوا على الكوكب. إنهم بحاجة الى مرشد يأخذ بيدهم. وعندما يعثرون عليه يحسنون التصرف بشكل رائع.

- نعم إنك لهم ما تقول، أنت المرشد، قالت نيفادا بصوت واضح.

- لقد حرّرت الكبار، بيد أن الأطفال نجوا من الموت بفضلك.

- كانوا يثيرون الشفقة حقاً. ثم إن بعضهم برهن على الكفاية من الشجاعة.

اغرورقت عيناها بالدمع وهي تتكلم. وظنّت أنّ ذلك يعود الى التعب الذي أصابها. ثم، ذلك الطفل الذي مات بين ذراعيها، لن تنساه أبداً. لقد كانت متأكّدة من ذلك. وأشاحت بوجهها،

تودّ إخفاء دمعتها. لكنّ تايرون ستروم رأى الدمع ممّا سبّب لها بعض الحرج.

كان يتفرّس فيها بحدّة. ولمّا حارت في أمرها، نظرت نيفادا الى يديها، ففوجئت بأن أظفارها مكسورة وبشرة أصابعها الى

غاية الخشونة.

- إنّهبي الى النوم، قال تايرون ستروم. سوف نتحدّث لي كل هذا غداً.

- في كلّ هذا؟

- سوف نتحدّث عنك، بالأحرى.

كانت مصعوقة. نظرت في عينيه مباشرة، فرأت فيها تعبيراً جعل قلبها يخفق بعنف، كما الطبول يقرعها الموسيقيون لإرقاص

الناس. وللحال، عادت بها الذاكرة الى راقصة «الغدر»، وكان يبدأ باردة تُمسك بقلبها.

تايرون ستروم يرغب في محادثتها! كانت تشك تماماً في انه طلب ذلك ليقول لها ما تريد سماعه. إذ كان يحترقها، وهي

تعرف ذلك تمام المعرفة. ثم إن اهتمامه مركّز على مكان آخر.

لقد تذكّرت بوضوح غريب الراقصة الشابّة وحركات ذراعيها الأفعوانيّة، وجسدها المتموّج، وعينيها النصف مُطبقتين،

وشفتيها المنفرجتين وشعرها الأسود الحالك الطويل منسدلاً على ثدييها العاريين.

وكي تتخلّص من هذا السراب، قرّرت أن تنهض.

- أنت على حق، قالت أخيراً بصوت أمّلت أن يكون طبيعياً، فانا... متعبة جداً. عمت مساءً.

كان هو قد نهض أيضاً، وفي اللحظة التي همّت فيها بالإبتعاد، أخذ يدها في يده ورفعها الى شفتيه ببطء.

- نامي جيداً نيفادا. وشكراً لك من كلّ قلبي.

ند استيقاظها، لاحظت نيقادا أن الحرّ يخيم على غرفتها وأن النهار قد تقدّم أكثر مما توقّعت. كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية عبر شقوق الستائر المنفرجة قليلاً التي لم تكن تحركها آية نسمة هواء كما كان يحصل في ساعات الصباح الأولى.

وتقلّبت، إذ اكتشفت أنها نامت عميقاً وبدون أحلام. ثم صدرت منها صرخة تعجّب، بعد أن نظرت الى ساعة الحائط. كان الوقت قد تعدّى الظهر. جلست في سريرها وربّت جرساً صغيراً من الفضة. فما لبثت الخادمة أن حضرت.

- الوقت متأخر، كثيراً! قالت نيقادا وهي تشير بإصبعها الى ساعة الحائط.

- قال سيدي إنه ينبغي عليك أن تنامي، أجابت بلغتها. وفهمت نيقادا، لكنها سرعان ما أسفت لأن أحداً لم يوقظها، فما من شك في أن تايرون ستروم قد ذهب الى سكجينا من

دونها، في حين أنها ترغب أكيدة في مرافقته لرؤية ما تستطيع عمله بعدُ لأولئك المنكوبين الصغار.

عادت الخادمة التي غادرت الغرفة، ومعها طعام الفطور.

فشرعت نيقادا في الأكل، أسفةً مع ذلك لكونها لا تفطر، كما في كل صباح، برفقة تايرون ستروم في الفناء الصغير.

كان اهتمامها مركّزاً في البداية على إقناع نفسها بكرهها له لتعود فتكتشف أن فطوراً تلتهمه برفقة رجل، يمثل شيئاً مميّزاً بالنسبة لها.

ثم، شيئاً فشيئاً، تجلّ طعام الفطور هذا بنكهة خاصة، بفضل جمال الساحة الصغيرة التي راح يكتسها بحنان نسيم يهبّ من الجبال، وبفضل شذى الزهور وزقزقة العصافير المغربية الصغيرة.

والحال أنه في هذا الصباح بالذات، بعد أحداث اليوم الماضي، وبينما يزدحم على شفقتها ألف سؤال وسؤال، تناول تايرون ستروم طعام الفطور بمفرده وانطلق الى سكجينا من دونها!

إلا أنها اعترفت في الوقت نفسه بأنها لم تسترح بعدُ تماماً. لنهار البارحة كان طويلاً، وعديدة كانت الانفعالات.

هنا، تذكرت بوضوح الهلع الذي أصابها عندما مات الطفل الذي كانت تضمّد جراحه، وهي لا تملك سوى الإقرار بعدم قدرتها على إنقاذه.

لقد حملته الى أندرو فرايزر بعد أن اغمض عينيه وأسلم



الروح. فعاين الكاهن الجرح العميق في جيبته والذي سببه عل
الأرجح سقوط الحجارة.

- لا حيلة لنا في ذلك، أيتها الشابّة. الصغير عاد الى باربه،
ثم خرج فوضع الجثة الصغيرة بالقرب من الجثث الأخرى
التي تنتظر دفنها. ورجعت نيقادا فيما بعد الى الأحياء والدمع
يبُلل خديها.

كان من غير المنطقي ربّما أن تبكي لفقدان حياة في حين
سقط قتلى كثيرون، لكنّها شعرت بمسؤوليتها في ذلك بشكل من
الأشكال. أحسّت بأنه كان عليها القيام بشيء ما، إلاّ أنها لم
تعرف ما هو.

وإذ انتهت من فطورها، تمدّدت نيقادا من جديد وأشارت
على الخادمة بإزاحة الستائر.

دخلت الشمس الغرفة بغزارة، جالبةً معها الدفء أيضاً. غير
أنّ نيقادا لم تكن ترغب إلاّ في رؤية روعة الهضاب الصوانية
المرتفعة تحت السماء الزرقاء.

«جنة صغيرة»، كان تايرون ستروم يقول في تحديد الوادي.
كان ذلك صحيحاً فعلاً بالنسبة اليه والى الآخرين الذين
يعيشون في هذا المكان. غير أنها لم تكن تملك مكاناً لها هنا.
«سوف نتحدّث عنك»، كان قد وعدها عشية البارحة. ولتوها،
أقلقها ما قد يعنيه هذا الأمر. وما من شك في أنه كان سيُعلمها
بأنها تستطيع العودة الى منزلها.

لم تكن تعلم لماذا هي أكيدة من ذلك تمام التأكيد. كان ذلك
إحساساً، كمثّل نهاية فصل من فصول كتابه، أو ربما نهاية

كتابه. فبشكل من الأشكال، كان اجتماعهما يُتّجه نحو
الانفصاض.

كان قد سئم، على الأرجح، من العقاب الذي اختاره لإنزاله
بها. إما لأنها لم تعد تثير اهتمامه، أو لأنّه يريد الاختلاء
بنفسه كما في كلّ مرّة يأتي بها للمكوث في قصبته الوردية.
على كل حال، كانت نيقادا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر،
وتخشاه في الوقت نفسه.

بيد أنها ما لبثت أن نامت من جديد، بعد أن انهكتها
افكارها المشوّشة والتعب المضني الذي هدّ قواها. كان الحرّ قد
خفّ حدّةً عندما فتحت عينيها. وكان الوقت قد ناف عن الظهر.
رنّت الجرس الصغير بقوة. ونهضت على عجلة عندما دنت
الخادمة منها، فاغتسلت وتزيّنت وارتدت ثيابها بسرعة قياسية.
كانت تخشى كثيراً أن ينعتها تايرون ستروم بالخمول.

والحال أنها عندما ولجت الى الصالون، لم تجد أثراً يدلّ
على وجوده. إقتربت في الحال من مكتبه لتلقّي نظرة على
مخطوطته التي لم تعمل عليها منذ يومين تقريباً.

فلو كان انتهى منها، لما عادت هي تنفعه في شيء. وفجأة،
رغبت في لمس أشياءه الخاصة. فراحت تمرّر أصابعها على
مسكة الريشة التي يستعملها للكتابة؛ على مرفقة الورق من
الجلد الأحمر، وهو الجلد نفسه المصنوعة منه جزمته النصفية
التي يحتذيها؛ كما لامست القلمة، ودفتر الأوراق وغيرها من
الأشياء الصغيرة التي يحفل بها مكتبه.

كانت تعرف تماماً أن لكلّ شيء معنى خاصاً بالنسبة إليه.

وكانت تحب كل هذه الأشياء التي تشكل نوعاً ما جزءاً من شخصيته.

شعرت نيقادا باضطراب غريب، فخرجت الى الفناء الصغير، وقرب النافورة، أصغت الى خرير المياه وكأنها تتحدث إليها بسقوطها المتكرر في الحوض الحجري.

تذكرت أنها سخرت برومنسية المكان، والحال أنها صارت تعتبره في الوقت الحاضر أروع الأمكنة في العالم. «ركن صغير للمغرمين»، فكرت، وصعد الإحمرار إلى خديها إذ فكرت في هذا الأمر.

هي التي غالباً ما هزنت بالمغرمين! هي التي غالباً ما سخرت بخبث من الذين باحوا لها بحبهم ورجوها الاقتران بهم، كدافيد مثلاً! «كيف كان لي أن أعرف ما يشعرون به؟» سألت نفسها.

كانت حتى الآن تفكر في الحب كميلٍ عذب وعاطفي. والحال انه اقترن اليوم، بالنسبة إليها، بالألم والقلق المتنامي ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، بحيث أمسى احتمالها أمراً لا يُطلق تقريباً.

كانت في حيرة من أمرها. وكانت تعلم أن حياتها ستكون رهيبة لو استحالت عليها رؤية تايرون ستروم أو اختفى من وجودها.

كان كل كيائها متوتراً. كانت ترصده وتدعوه الى الإسترخاء، وحين لم تعد تحتمل، قفلت راجعة الى الصالون فجلست أمام النافذة، وسمرت نظرها باتجاه الوادي.

كانت الهضاب الوردية مبقعة باللون الذهبي. وكانت الظلال التي تولدها الشمس الغاربة أرجوانية كلون الجمشمت المختبىء في الجبال.

«إنه أجمل مكان في العالم»، فكرت نيقادا «ولو رحلتُ، فقد لا أعود إليه أبداً!» ذلك ان تايرون ستروم كان وحده القادر على مساعدتها على عبور هذه الصحراء المحصبة بكل أمان. وحده كان يحظى بهذا الإمتياز الخاص، الذي قد يشاركه فيه المحترم أندرو فرايزر، في حين بدا لها أن الأوروبيين الآخرين محرومون من هذه المنطقة من المغرب.

كانت الشمس لا تزال تُرخي أشعتها، مذهبةً سطوح القصبه ومغلقةً الوادي ببهاء وردّي لا يوصف.

وفجأة، شاهدته. كان تايرون ستروم يرتقي المنحدر على ظهر حصانه، تماماً كالليوم الذي أدركت فيه أنها تحبه.

أما الآن، فلم يكن ثمة مجال للشك: فالنور الذي كان يحيط به لم يكن مردّه الى الشمس فحسب بل خصوصاً الى الهالة التي كانت تشع من شخصه الحميم.

كان حصانه يُسرع في مشيته، كما لو أن الفارس يستعجل الوصول الى منزله. وتركت نيقادا النافذة بحذر مفضلةً الجلوس على الأريكة.

سمعت صوته يتوجّه الى الخدم. ثم دخل. كانت نيقادا عاجزة عن التفوه بأية كلمة لكثرة خفقان قلبها. لم تتمكن إلا من النظر اليه؛ كأن عينيها الخضراوين تأكلان وجهه أكلاً.

هل استرحيت تماماً؟

وابتسم وهو يعبر الصالون ليضع رزمة صغيرة على المكتب.
 - وددتُ حقاً... لو ذهبت بصحبتك.
 وشعرت نيفاداً بأنه من الخطأ أن تتكلم بلهجة العتاب، بيد
 أن الإهانة التي أحسّت بها طيلة هذه الساعات التي قضتها
 وحيدة، كانت تشبه الجرح.
 - كنت متعبة جداً، قال، ولم يبق هناك ما تقومين به.
 - هل أنت متأكد من ذلك؟
 - تمام التأكيد. لقد دفن اندرو فرايزر الأموات عند الفجر،
 ووصلت المواد الغذائية والطبية من تزنيث كما أمكن مواكبة
 الجرحى الخطرين الى المدينة.
 - والـ... اطفال؟ سألت نيفاداً بقلق.
 - غالبيتهم تعافوا كما الأعجوبة تقريباً. وقد عادوا مع
 ذويهم. كان هناك خمسة أيتام عملت على ايجاد مأوى لهم،
 فقد وافق قائد تزنيث على الإهتمام بهم.
 وتقدّم تايرون ستروم فجلس بالقرب من نيفادا، على الأريكة
 إيّاها.
 وأحضر الخادم قدحاً من الشاي بالنّعناع. فشرب تايرون
 ستروم قبل أن يتابع:
 - وعدتُ بأن أضع تحت تصرفهم مبلغاً من المال. هل
 ترغبين في المشاركة؟
 - بالتأكيد، نعم، قالت نيفادا بحيوية. أنت تعرف أنّ ذلك
 أصدق مُنابي.
 - توقّعتُ هذا، أجب. والحق يُقال إن المبلغ اللازم ليس

كبيراً. فالدولار الأميركي والليرة الإنكليزية يساويان أكثر بكثير
 من العملة المغربية.
 - تعرف أنّني لا أبه بالمبلغ الذي عليّ صرفه.
 - نعم، هذا أيضاً ما تبادر الى ذهني.
 أقبل خادم ليأخذ القدح الفارغ وسأل تايرون ستروم إذا
 كان يريد شيئاً آخر، فهزّ هذا رأسه بالنفي.
 ومن جديد، صار تايرون ستروم ونيفادا بمفردهما. فقام هو
 لتأمّل الوادي.
 - لقد اصطحبتُ الأب فرايزر معي، قال.
 - هل سيقم هنا؟
 - لا. إنّ قائد المدينة صديق له، فقد أنقذ له ابنه. وهو
 يحاول إقناعه بأن يوفد الى سكان سكجينا مهندسين لإعادة
 تعمير قرينتهم. فأهل طفراوت يتقنون تشييد البيوت أكثر من
 سكان الجنوب المغربي كلّهم.
 - أودّ أن أقدم لهم مساعدة مالية، قالت نيفادا.
 - فكّرت في ذلك. وآنث تذكرين أنني تحدّثت الأمر
 مع المحترم فرايزر.
 - نعم، بالفعل.
 وتابعت الكلام بحياء بعد فترة من الصمت.
 - أحبّ أن أرى أي نوع من القرى سوف يتصوّره
 المهندسون هنا. فطبيعة الأرض والمنظر مختلفة عمّا هي عليه في
 سكجينا وكذلك الألوان.

- وأنا أيضاً، بي فضول لمعرفة النتيجة. ربّما تعودين الى هنا عندما ينتهي كل شيء

ولزمت نيفادا الصمت فأضاف تايرون ستروم:

- البارحة مساءً، قلتُ لك إننا سنتحدّث عنك. قد يكون الوقتُ حان.

- ماذا عندك... تقوله لي؟

- ما توذّين سماعه، بالتأكيد. أي أنّ بإمكانك العودة إلى ديارك.

وحبست نيفادا أنفاسها. ثمّ تمتعت بصعوبة وبصوت بدا لها غريباً.

- ما الذي جعلك.. تقرّر... فتسمح لي بذلك؟

عاد وجلس بالقرب منها.

- هل عليّ إبلاغك أنّ الدرس، لا بل العقاب قد انتهى. لقد اجتزيت الإمتحان النهائي بتفوّق تام.

- هل... تظنّ ذلك حقاً؟

- بناءً على ما قمّت به البارحة فلا بدّ وأن أكون ناكراً للجميل بحقّ وغير عادل لو أنني لا أمنحك حريتك.

- ولما صمتت نيفادا، أضاف:

- سألتيني لماذا اضطلعتُ بدور إله تجاهك. لقد كان السؤال ممتازاً ويستحقّ جواباً.

تفرّس فيها، وفي عينيه نظرة تساؤل، كما لو كان ينتظر أن تتكلّم. ولما لزمت الصمت، قال بإصرار:

- الأمر لا يهَمّك؟

- بلي... بلي... بالتأكيد.

- إذاً، هاك الجواب: بالرغم من الغضب الذي أثارته فيّ، فقد أكّد لي حدسي أنك تستحقّين الإنقاذ من نفسك.

- وهل تعتقد أنّ هذا... ما حقّقته؟

كان في صوتها نبرة خفيفة من التحديّ.

- نعم، أجاب بهدوء. عندما رأيت البارحة الدموع تبّلّل خديك، وعندما رأيتك نائمة وذلك الطفل بين ذراعيك، أيقنت أنك امرأة بحق، مهما تكن جهودك لانكار ذلك!

- هل من العدل أن تحصل هزّة أرضية لإثبات صوابيّة رأيك؟

- لو لم تحصل هزّة أرضية، لحصل شيء آخر، أجاب تايرون ستروم. فالذهب كان موجوداً، ولكنّ، وجب علينا الحفر عميقاً للعثور عليه.

نهضت نيفادا بدورها وجاءت تقف أمام النافذة.

- والآن... تعيدني الى دياري... الى أيّة حياة، الى أي نوع من الوجود؟

- سوف تعودين الى حياتك الماضية، لكنني أعتقد أنك ستظنّين اليها بعينين جديدتين. كذلك، ستريّن الناس بشكل مختلف.

- وهل أنت أكيد من... رغبتني في ذلك...؟

بالرغم من أنها لم تلتفت، فقد شعرت بأنه يهزّ كتفيه.

وصمت فترة طويلة قبل أن يجيب.

- سوف يكون لك الكثير من الحظوة، نيفادا، فلن يتغيّر شيء

في هذا المجال، غير أنك ستكونين أكثر لطفاً مع الشباب الذين سيقعون في هوك، إذ تأسرهم عينك الواسعتان الخضراوان وشعرك الملتهب.

- وإن هم... لم يسحروني؟

كانت الكلمات تمرّ بصعوبة من بين شفتيها.

- ماذا تريدان من الحياة، نيفادا؟ عمّا تفتشين؟

كان صوت تايرون ستروم يدوي في صمت الصالون الهادئ.

كان هذا السؤال هو نفسه الذي طرحته نيفادا على نفسها، وهي تعرف تماماً الجواب عليه. بيد أنها كانت مجبرة على الاحتفاظ به لنفسها.

- أنا... أنا أريد... أن أبقى هنا... في المغرب. ربّما بإمكانني... أن اشتغل مع الأب فرايزر... قد أفتتح ميتماً للأطفال، كالمياتم التي نجدها في أوروبا. كانت تتكلم بتردد، ثم فهمت فجأة نبرة التعجب في صوت تايرون ستروم.

- هل أنت جادة في ما تقولين؟

- نعم، بكل تأكيد! أعرف أن هذا ما أريده. لا أريد... أن أعود إلى ديارني... لا أرغب... في العودة... فلا عمل لي هناك.

- ماذا تقصدين بذلك؟

والتفتت.

نظر إليها، حادّ القسّمت، فحسبت أنه يرغب في ثنيها عن مشروعها. كان بمقدوره منعها من البقاء في المغرب أو على الأقل وضع الصعوبات أمام تحقيق هدفها. وهكذا، إذ شعرت بأنّ

عليها إقناعه بصدقها، حاولت شرح موقفها بشكل يأنس:

- كيف السبيل... إلى إقناعك؟ أنا أعرف رأيك في... بيد أنني تغيّرت... أقسم لك... ليس هراء ما أقول... أنت تظنّ أنّ قرارني... نزوة جديدة لامرأة غنيّة... ولكن لا.. فالأمر مهمّ بالنسبة لي.

- هل يُعقل أنّك تغيّرت إلى هذا الحدّ بين ليلة وضحاها تقريباً؟

- قد لا يكون التحوّل جذرياً كما يبدو، أجابت نيفادا. ربّما حصل بكل بساطة لأن الفرصة لم تتّح لي بعد كي أعمل أي شيء غير الذي علّمني إياه. وقد علّمني كيف أتصرّف في المجتمع الراقى، وكيف أتسلّى وأبذّر الكثير من المال على نفسي. ولما بدا عليه عدم الإقناع، أضافت:

- ... سوف... أخبرك طريقة. قد تفهمك لماذا أنا على ما أنا عليه.

ونظرت إليه نظرة توسّل.

- كُليّ أذان صاغية، قال بعد صمت. أنا لا أفتش عن... أعدار، بل سأكتفي بالرواية. لن يفهمني أحد سواك... ثمّ قد لا تفهمني أنت أيضاً.

- سوف أحاول، على كلّ حال، قال.. أنا لنفهمك.

- كنت في الثامنة من عمري عندما توفّيت والدتي. ولما كنت قد عشت عمري كلّهُ بالقرب منها، فإن غيابها، على ما أعتقد، قد أثر فيّ أكثر ممّا لو ربّيتني حاضنات برفقة أطفال من عمري. ولزمني وقت طويل لأفهم أنّني فقدتها إلى الأبد.

وسكنت نيفادا، إلا أن كلماتها كانت تشير صدى محرناً
ودراماتيكيًا يقول لتايرون ستروم كم لقيت من عذاب، كم تل
طفلة فقدت رشدًا تمامًا لموت كائن عزيز.

- وبفقداني والدتي، أضافت نيفادا، حولت حناني الى
والدي. كنت أعبهه وأرغب من كل قلبي في أن يحبني هو
أيضاً. كنت أعدّ الساعات التي يكون فيها غائباً، وأعمل
المستحيل لأقضي أكبر وقت ممكن معه.

والتفتت نيفادا تتأمل الوادي مرّة أخرى، ثم تابعت حديثها:
- وذات مساء، كنت أهمّ بدخول مكتبه بتهوّر لأعبر له عن
سروري برؤيته واشتياقي اليه، عندما سمعته يأمر إحدى
الخدمات: «أحضري لي شيئاً أشربه، وأبعدي عني هذه الطفلة،
بحقّ السماء. فلا وقت لديّ للإهتمام بها!»

أصغى تايرون ستروم، متأكّداً من أنها لم تُخبر أحداً قبله
بهذه الحادثة. وعلم من تعبير وجهها حجم الصدمة التي
سببتها لها.

- بكيت كثيراً عندما ماتت والدتي، أضافت نيفادا، بصوت
خافت مضطرب، بيد أنني لم أبك عندما فهمت أن والدي لا
يحبني. إكتشفت فحسب أنني وحيدة في عالم عدائي.

وسكنت أيضاً قبل أن تتابع:
- ... أنا ... أنا افترض أن أبي كان عنده، مع ذلك، معنى
ما للمسؤوليّة، لأنه عمل بعد وقت قصير على طرد الربيّة وجاء
بأخرى، أصغر منها بكثير.
وضحكت نيفادا ضحكة خفيفة باردة.

- كنت أجدها غاية في الروعة وفاتنة جداً. كان فيها شيء
من الألق والحادثة لم أكن، بالتأكيد، لأجده في مربيتي المسنة.
فليس من العجب إذاً أنني محضتها كامل حبي.

- أو لم يكن معك اطفال آخرون؟ سأل تايرون ستروم.

هرّت نيفادا رأسها بالنفي.

- لا أحد بإمكانني اتّخذه صديقاً. لا تنس أنني ابنة
مليونير. وعليه، كنت أنتمي الى طبقة اجتماعية محدّدة، قالت
مفسّرةً بلهجة عنيفة. أواه! كان لي الحق طبعاً بالإشتراك في
اجتماعات صغيرة، غير أنني لم أكن أشعر أبداً بأنني في المكان
المناسب؛ فالراشدون كانوا يشفقون عليّ بإفراط بينما كان
الاطفال ينظرون إليّ بحذر.

وصدرت عنها تنهيدة خفيفة.

- ... لم يكن عليهم أن يتحمّلوا المضايقات المفروضة عليّ:
كان أحد المخبرين يتبعني أينما أذهب خوفاً من اختطافي؛ كما
كان عدد من الحراس المسلّحين يقومون بدوريات في الليل حول
المنزل؛ فيخضع كلّ زائر يرغب في رؤيتي لتفتيش دقيق قبل
وصوله إليّ.

- هل وصلت بك الحالة الى هذا الحدّ؟ سأل تايرون ستروم
بدهشة

- بل أسوأ من ذلك... ومن المستحيل أن أصف لك
وضعي... الذي كان غايةً في الغرابة. كنت أعرف أنني لست
طفلة عادية... وأنتني كنت غير اعتياديّة... إلا أن وقتاً لزمني

قبل أن أفهم لماذا يفصل بيني وبين الأطفال الآخرين شبه حاجزٍ خفيٍّ على أنه محسوس.

- ومربيّتك الجميلة؟

- نعم... بيريل ساونديرز.

ولاحظ تايرون ستروم نبذة غريبة في صوت نيقادا عند ذكر هذا الاسم، مما دفعه إلى السؤال:

- وماذا كان الخطأ فيها؟

- هل من الضروري طرح هذا السؤال؟ كانت تجدني مزعجةً، تماماً كأبي. وأنا اليوم أفهم كم كنت مزعجة بسبب... ولعي وإفراط في الغيرة وإصراري على المطالبة بها في كل لحظة.

- وهل تزوّجت؟

- لو تزوّجت لكان ذلك في مصلحتي، بلا شك. لكنّ ذلك لم يحصل. وقد قرأت يوماً ما رسالةً فرغت من كتابتها.

ومرّة أخرى، ضحكت نيقادا ضحكة صغيرة باردة.

- كان ذلك درساً جيداً لي! فبذلك تعلّمتُ أنّه لا يجدر بي

قراءة رسائل الآخرين

- وماذا تراها كتبت؟

- تحت مرفقة الورق تركتُ رسالتها. وكانت قد كتبتها بينما

كنت أطلع دروسي. ولما عدنا إلى قاعة الدرس بعد الإنتهاء من

تناول طعام الفطور، تخلّفتُ عنّي لتتكلّم مع سكرتير والدي.

كنتُ غيّري بشكل جنوني، إذ خيّل إليّ أنّها تحبّه أكثر منّي.

- وهكذا قرأتِ الرسالة؟

- فتحتُ مرفقة الورق وقرأت دون تردّد. لم أعرف لمن كانت

الرسالة موجّهة، لشابٍ ربّما، ولكنّ قد تكون موجّهة أيضاً

لعائلتها. كلّ ما أعرفه، أنّ جملة لفتت نظري بشكل مفاجئ،

كما لو أنّها كتبتُ بأحرف من نار.

- وماذا كان في تلك الجملة؟

خيّل لتايرون ستروم للحظة أنّ نيقادا لن تتمكّن أبداً من

تكرار ما قرأت. إلّا أنّها استأنفت كلامها:

- مربيّتي العزيزة، تلك المرأة التي كنتُ أعبدها، كتبت

تقول:

«ما كنتُ لأبقى في وظيفتي هذه لحظة أخرى لولا المال. لو

يعلم الناس كم أعاني من هذه الطفلة المتباكية التي تتشبّث بي

كعشب الحائط، بحيث لا أملك وقتاً أكرسه لنفسي».

واستعادت نيقادا أنفاسها بصعوبة قبل أن تضيف:

- ... كان في الرسالة أكثر من هذا، لكنّي لم أرغب في قراءة

المزيد. وأظنّ أنّي أقسمتُ في ذلك اليوم بالذات على أن لا

أحب أيّ شخص أبداً حتى لا أصاب بأذى كما حصل لي أولاً

مع أبي ثمّ مع مربيّتي.

- أفهمك، قال تايرون ستروم بصوت خفيض.

- وفيما بعد، بعد أن كبرتُ قليلاً، قرّرتُ إيلاّم الناس بقدر

ما تألّمتُ أنا. بذلتُ قصارى جهدي ليقع الرجال أسرى غرامي.

ثمّ، كنتُ أظهر لهم تفوّقي بالقول إنّني لا أشعر نحوهم، ونحو

الآخرين، سوى باللامبالاة.

- وتعتبرين الآن أنك تغيرت؟

- اعتقد أن لكل منا نقطة ضعف لا تلبث أن تنكشف، مهما
بذل من جهود لإخفائها أو تجاهلها.

- وهل اكتشفت نقطة ضعفك؟

- نعم، البارحة. فقد فهمت أنني سأكون سعيدة أبداً...
وعلى كل حال أكثر سعادة مما عليه الآن... لو قُيِّض لي أن
أعيش مع أطفال.

- إذاً، لقد اكتشفت أن لديك حباً تهيئنه؟

- طبعاً! لديّ حبّ أهبي، أجابت نيقادا بما يشبه العنف. إلا
أنه كان دفيناً في داخلي منذ سنوات كثيرة. ثم إن اليتامى
الذين لا يملكون سنداً لهم سوى الرحومين من الناس لا يمكن
أن يرفضوا الحبّ الذي نغدقه عليهم طالما هم صغار السنّ.

- هل تظنّ أنك ستكونين سعيدة وراضية إن تمكّنت من
تكريس نفسك لأطفال الآخرين؟

- هل يمكن أن نكون راضين تماماً؟ سألت بغموض. إن
تعود الحياة فارغة وموحشة كالسنين الخوالي.

وسكنت فترةً طويلة، ثم أضافت، ونظرها المتوسّل مرّكز على
وجه تايرون ستروم:

- ساعدني... أنت تعرف أنني لن أتمكّن من النجاح بدون
مساعديتك.

نهض وتقدّم نحوها. فراحت تتفرّس في وجهه لتعرف ما إذا
كان سيسجيب لطلبها.

- عليك مساعدتي، قالت بحماسة. وإن أنت طردتني، لما
عرفت من أين أبدأ حياتي وكيف. زد على ذلك...

ولم تُنه جملتها... بعد صمت، قال تايرون ستروم:

- هل تعتقدين أن أباك قد يمنعك من القيام بما تريدين؟

- أواه! بالتأكيد لا. أنا لا اعتقد أن أبي يهتمّ أدنى اهتمام
بما أفعله. لكنك تعرف تماماً كيف سيتصرّف أصدقائي وزملائي
والصحف. فما الذي لن يقولوه! سوف يتكلمون، ويكتبون
الكثير، وذات يوم، سوف أجد نفسي على رأس جمعية للبرّ
والإحسان... حيث لن أكون على اتصال مباشر بالأطفال وحيث
سيُتاح لي أن أفعل ما فعلته هنا تقريباً، لا أكثر.

- بالتأكيد، فانتِ لست مخطئة تماماً، قال تايرون ستروم
موافقاً.

- إذاً... هل تساعدني؟

كان في صوت نيقادا ونظرها تصميم لم يكن فيهما من قبل.
كان قريباً جداً منها، يحدّق بها برصانة. ثم أعلن بهدوء:

- اظن أن طفلاً سيكون جواباً على مشكلتك، نيقادا. ولكن،
لماذا لا يكون الطفل طفلك؟

ونظرت إليه بتعجّب. ثم، برفق، بكثير من الرفق بحيث لم
تكن تدري ما يحدث، طوّقها بذراعيه وجذبها نحوه.

- هل تسمحين لي بأن أنجب منك هذا الطفل؟

وأطبقت شفاته على شفيتها فحدث كأنّ العالم بأسره توقّف
عن الدوران. هذه القبله، هي بالضبط قِمة مشتهاها؛ إنها حقاً
ما كانت تنتظره في أحلامها؛ إنها الفكرة التي رسمتها عن
الجنّة!

كانت شفاته في البداية غاية في النعومة، كما لو أنّه يخشى

أن يُجفلها. ثم، إذ أحسُّ بها تلتصق به، شدَّها إليه أكثر
وصارت قبلته أكثر اتقاداً وإلحاحاً.

صارا جزءاً من الشمس الغاربة، من الهضاب الوردية ومن
كل ذلك الوادي الرائع. كانت نيفادا تشعر وكأنَّ تايرون ستروم
يمتصُّها بأسرها.

رفع رأسه وحدَّق بعينيها المتألقَتين، في حين لم تقوَ نيفادا،
المرتجفة الشفقتين، إلا على تمتمة الكلمات التي لم تستطع
حبسها:

- أحبك. أنا... أحبك.

- وأنا أيضاً، أحبك. يا حبيبتي، هل تعتقدين حقاً أنني
سأسمح لك بالإعتناء بغير أطفالي؟

- خُيلَ إليَّ أنك... ستعيدينني.

- حتى قبل أن أتى بك إلى هنا، كنتُ أعلم أنك مقدرة لي
وأنة ليس بمقدورك العودة إلى الحياة التي عشتها قبل لقائنا.

- ولكن... كنتُ تكهني... كنتُ تمقُنتني... وقد كنت ظالماً
للغاية.

- لأنني كنتُ أعرف أنك مختلفة، يا حبيبتي. ولم أكن أعلم
أنك تألت إلى هذا الحدِّ.

وقبلها مرّة جديدة فتعلقت نيفادا به. ولما أحسُّ بها ترتعش
بين ذراعيه، طمأنها قائلاً:

- لن تكوني وحيدة بعد اليوم، أعدك بذلك، يا حبيبتي. فأنا
أيضاً بحاجة إلى حبك.

وماذا لو صرْتُ يوماً ما... عبأً عليك، ماذا لو اكتشفتُ
أنني أحبُّك زيادة عن اللزوم؟

إبتسم تايرون ستروم:

- لن تحبيني قط كفايةً. أنا لا أرغب في حبك فقط، يا
حبيبتي، بل في كل ما تملكينه: عينك... أنا نيفادا.

ولامسهما بقبلة.

... وشعرك المتوهج...

ولامس يديه صفائرها البراقة المنسدلة على ظهرها.

- ... لو تعلمين كم تألت من البقاء بعيداً عنك ومن عدم
لمسك، أضاف.

وقبل وجنتيها، ودائرة فيها وشفقتها.

- ... أودَّ لو أغطِّي بالقَبْلُ جسدك كلَّه وخصوصاً قدميك
الصغيرتين المخضبَتين بالحنَّة، يا رانعتي الصغيرة.

وتمتت نيفادا، متألقة العينين، وهي تحبُّء وجهها في ثنية
كتفه.

- أحبك وأرغب في أن تحبني. ولكن... كيف لي بتخطي...
الراقصة؟

وحانت من تايرون ستروم حركة نرقة كما تحت فعل
المفاجأة. ثم، مرَّ أصابعه تحت ذقن نيفادا وأدار وجهها نحو

وجهه بشيء من السلطة.

- الراقصة؟

وضحك ضحكة خفيفة إذ رأى تعبير وجه الشابة.

- أنتِ غيري! أواه! يا للسُخف، يا حبييتي. أنتِ غيري ولم
يخطر ذلك في بالي قط.

- كانت مثيرة... للغاية، ورأيتُ الشيخ... يقدمها لك...
- نعم، هذا ما رأيت. ولكن، لو أنكِ تعرفين أكثر عن هذه
المنطقة، لعلمتِ أن ما هو بشكلٍ من الأشكال زينة البيت
المغربى يقدم للضيف بصورة الية.

وطبَع قبلة على جبين نيفادا ثم اُضاف:
- لقد قدّم الشيخ الراقصة للضيف الذي أراد تكريمه،
وكان ذلك بادرةً منتظرة منه، ولياقةً واجبة. بيد أني كنتُ
مجبوراً، من جهتي، على رفض هذه الهدية السخية.
- ... رفضتها؟

والتمعت عينا نيفادا، فيما ارتجفت شفاتها اللصيقتان
بشفتي تايرون ستروم.
- لقد رفضتُ، يا حبييتي، لأنني كنتُ منشغلاً بشخص
آخر. شخص شرير للغاية، إلا أنه لا يمكن مقاومته. شخص
كنت أحبّه منذ ذلك الوقت، بالرغم من تمسّكي بمقاومة هذه
الحقيقة.

- وأنا أيضاً... كان عليّ مقاومة ذلك. لم أكن أريد الوقوع
في غرامك. غير أنني لما كنتُ أفكر في الراقصة...
ومن جديد حُبّات وجهها في كتفه فسألها تايرون ستروم
بهدهو:

- ماذا فُكرتِ بصددها؟

- شعرتُ أنني لن أقوى... على منافستها... إلا أنني أردتُ
أن تحبّني كما ظننتُ أنك تحبّها.

- يا حبييتي، إن الحبّ الذي بيننا مختلف تماماً عن الذي
يمكن للراقصة - أو حتى لآية إمراة - أن تقدّمه لي.
وضغط بذراعيه بشدّة حول خصرها.

- لقد فتّشت طيلة حياتي عن امرأة أستطيع أن أحبّها كما
أحبّك. ربّما لأنني عشتُ كثيراً في الشرق، أردتُ أسرها، أو
الإستيلاء عليها إذا شئت. كنت أريد أن أتأكد من أنها لن
تكون لأحدٍ سواي.

- أنا... أحبّك، صرخت نيفادا رافعةً رأسها نحوه. أحبّك...
حبّاً كلياً، من كلّ عصب في كياني... ولن أكون ملكاً لغيرك أبداً.
- لمزيد من الأمان، سوف أعمل على الإحتفاظ بك هنا
ومنحك من رؤية أيّ إنسان سواي. حتى أنني سأمنعك من
الخروج من دون اللثام.

- سوف أقبل بما تقول، إن كنتِ أنتِ ترغب في ذلك.
- حقاً؟

- كلّ ما أريده، هو أن أكون بالقرب منك، أنت تملأ حياتي
كلّها ولا وجود لشيء إلاك أنت... أنت... أنت...
وشرب هذه الكلمة الأخيرة بتقبيلها بشهوة فقدما معها
انفاسهما.

كانت الشمس المائلة الى الإحمرار تبدو وكأنّها تنعكس في
عيني تايرون ستروم.

- أهواك بألف طريقة وطريقة، قال، وبالرغم من أنني أودّ

بشوق أن احتفظ بك لي فقط، فإنني لا أنسى أن ثمة أموراً كثيرة علي القيام بها.

- أي نوع من الأمور؟ سألت نيفادا بتخوف.

- أهم تلك الأمور، في الوقت الحاضر، هو حبنا المتبادل،

أجاب تايرون ستروم. لكن، إعلمي منذ الآن أن منصباً عرض

علي وأعتقد أنك ترغيبين في أن أقبل به.

- وما هو هذا المنصب؟

- إن الرسالة التي تلقيتها بالأمس مصدرها وزارة خارجية

بلادي. فيها يطلبون مني أن أبقى في المغرب سنة على الأقل،

مراقباً للأحداث التي من المنتظر أن تحدث قريباً.

- آية أحداث؟ سألت نيفادا بدهشة.

- يتوقع البريطانيون أن تحاول فرنسا احتلال المغرب. من

الطبيعي أن لا شيء رسمياً. ولكن، في هذه الحالة، ونظراً

لعلاقتي المميزة بأهل المغرب، فمن البديهي أن أتمتع بحق

التجول في البلاد كما يحلو لي. وهكذا، فإن التقارير التي

سأتمكن من إرسالها إلى انكلترا ستكون ذات أهمية

ديبلوماسية.

- هل بإمكانني مرافقتك؟

- هل تعتقدين أنني قد أقبل بالمهمة لو كان الأمر عكس

ذلك؟

- يبدو لي غاية الغرابة والروعة أن أتمكن من العيش وإياك

هنا، بين هذا الشعب الذي صرتُ أحبّه. وسوف تعلمني لغة

البلاد، ختمت بحماس.

- هناك الكثير أعلمك إياه، قال تايرون ستروم. ولكن سأعلمك أولاً أن تحبيني.

- أحبك منذ الآن بشكل يستحيل معه أن أحبك أكثر!

- آواه! أؤكد لك أنك لا ترين سوى قمة جبل الجليد!

يا حبي العزيز، أنت غاية في الجمال، ويقول لي شعرك

الناري إن في داخلك شعلة متقدة متوارية تماماً أرغب في

إلهابها وتأجيجها لي وحدي.

ألت نيفادا بذراعيها حول عنقه وجذبت رأسها نحو رأسه.

- علمني أن أحبك. علمني أن أحبك كما تشتهي. لم أكن

أعلم بإمكان وجود رجل مثلك، رائع إلى هذه الدرجة، مذهل

وعجيب. هل أنت أكيد من أن هذا ليس حلماً... ومن أنني لن

استيقظ ميتة من العطش في الصحراء؟

أغرق تايرون ستروم في الضحك إذ قرأ القلق على وجهها.

ثم رفعها بين ذراعيه ووضعها على الأريكة، بين وسائد الحرير.

نزع قرطبي أذنيها وفتح قفطانها ليقبل عنقها.

- أحبك، قال. أحبك كما لم أحب امرأة أخرى أبداً. إن

بشرك شبيهة بزهرة المغنوليا.

- قبلني... قل كيف ينبغي علي أن أحبك.

كان الهوى يسبغ على صوت نيفادا عمقاً كذاك الموجود

قليلاً في صوت تايرون ستروم.

قبلها بوحشية، بشبق، بعنف. وأخيراً، استولى عليها،

وجعلها أسيرته مدى العمر. لم تعد نيفادا تملك نفسها، بل

صارت جزءاً من تايرون ستروم، مستعدةً للإنصياع لأدنى رغباته ومقاسمته الهواء الذي تتنفسه. بينما نا...
وراحت نيفادا تلتصق جسدها بجسد تايرون ستروم، في حين استسلمت للماسمة يديه الجامدتين عبر قفطانها الحريري الرقيق. كان الشعور في غاية الإثارة بحيث أحسّت وكأنّ ناراً تجري في عروقه وتنتقل قبلاً شبيهةً باللهب.
- أحبك...

حتى أنّها لم تعد تعرف إن كانت قد نطقت بهذه الكلمة بصوت عالٍ أو إذا كانت فكرت فيها في سرّها.
- يا إلهي! كم من الحب أكنه لك!
تايرون ستروم أيضاً لم يعد صوته إيّاه. صار أبحاً للغاية بفعل الرغبة الأكلة.
وفجأة، بينما كانت نيفادا تتعلّق به بولع، نهض وأفلت من عناقها، فنظرت إليه بقلق.

- ماذا في الأمر؟ هل ثمّة شيء... على غير ما يُرام؟ سألت.
- كل شيء على ما يُرام، يا معبودتي.
- ولكن لا! قالت معترضةً. لماذا لم تعد تقبلني؟

وابتسم تايرون ستروم.
- سوف نخرج.

- نخرج؟
- نعم. لنذهب لرؤية الأب فرايزر. ينبغي أن يزوّجنا، يا حبيبتي، إلا إذا كنتِ ترغبين في أن أعاشرك قبل أن تصيري إمرأتي؟

- هل بإمكاننا الزواج الآن... في الحال؟
- أواه! بالتأكيد، حسب طقوس الكنيسة الاسكتلندية. على كل حال، من الخطر عليك أن تمكثي معي تحت سقف واحد...
كان لا يزال يبتسم. وجذب نيفادا، التي ما إن نهضت حتى رفعت وجهها نحو وجهه قائلةً: لا أعتقد أن هذا...
- إنّ هذا الخطر لا يزعجني، غير أنني أريد أن أكون إمراتك الى الأبد.

- إنها أيضاً أغلى أمانيّ، أجاب تايرون ستروم. وعندما ترتبطين بي، يا حبيبتي، لن تتمكّني من الفرار، ولن يكون بإمكانك العودة الى حياتك السابقة.
كان ينكدها بلطف، إلا أنّها أجابت بكثير من الرصانة:
- لا أتصوّر شيئاً أروع من الحياة معك، معك وحدك.
- ومع أطفالنا، أضاف تايرون ستروم.

- أواه! نعم، سوف يكون لنا العديد من الأطفال، صرخت نيفادا. لن يعرفوا الوحدة التي عانيت منها أبداً! كنتِ شقيّة لأنّ أحداً لم يقبل بمحبّتي، فقد كنتِ شخصاً زائداً. لكنّ الأمر سيكون مختلفاً بالنسبة الى أطفالنا.

- نعم، يا حبيبتي، وكلّ ذلك لن يتكرّر. أما الآن، فاسرعي واحضري ما ترتدينه و... بحق السماء، لا تنسي اللثام، وإلاّ جازفنا بمجابهة دزينة من المشايخ على الأقل، كلّ منهم يتحرّق لرؤيتك في حريمه.

- أريد أن أكون... في حريمك أنت... حيث لا إمرأة سواي! أضافت بسرعة أمام هيئة تايرون ستروم الساخرة. وإذا حدث

ان نظرت الى إمراة أخرى... فسوف أقتلع عينيك... او اضربها حتى الموت!

وانفجرت نيفادا ضاحكةً ووضعت شفيتها على شفتيه.

- هل مازلتُ تلك الساحرة؟ سألت بصوت خافت.

- أنتِ رائعة! فاتنة! لا تقاومين! وأنتِ في الوقت نفسه،

إمراة بحق.

كان ذلك الجواب الذي تتمناه. فتنهدت تنهيدة إنفراج.

- أنا إمراتك، تمتمت. الى الأبد... آواه! أتوسل إليك، أحبك

كثيراً... عيل صبري... فلنسرع لرؤية الكاهن.

ومرّة أخرى، وضع تايرون ستروم شفتيه على شفيتها

فاسترخت نيفادا تحترق بالنار التي تلتهمهما معاً. وذابا في

روعة الوادي، بين القصبّات والهضاب الوردية، في الشمس

الغاربة والهواء الآتي من الصحراء. استسلما لتلك النار

المتفجرة من أعماق حبّهما. وشرعا يسبران معاً كنه ذلك الكمال

الغريب الذي أنعمت به الآلهة على هواهما.

- أنتِ ملكي. قال تايرون ستروم بيقين. أفكارك ملكي، قلبك

ملكلي، وجسدك ملكي أيضاً من قمة الشعر الذي يزنر وجهك

القاتن الى أخمص قدميك الصغيرتين الجميلتين.

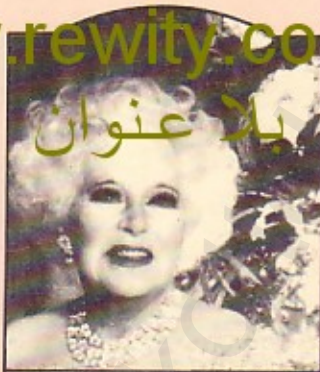
- أحبك! أعبدك! تمتمت نيفادا.

وتكسر صوتها على الكلمات الأخيرة التي ضاعت في قبلة

تايرون ستروم الساحرة. وشعرت نيفادا بنفسها مكبلة به كلياً

بلذة لا توصف.

www.rewity.com/vb



بربارة كارتلانڊ كاتبه
معاصره بلغت مبيعات
كتبها حوالي ٥٠٠ مليون
نسخة في نحو ٢٠ لغة،
تضاف إليها اليوم اللغة
العربية . وسر نجاح الكاتبة
أنها بتأسر قلوب قرائها
في كل قصه من قصصها.